وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

قصائد مختارة من أشعار رسول حمزاتوف



ترجمة : د. مسوّح مسوّح

قصائد مختارة

من أشعار رسول حمزاتوف

الإشراف الطباعي

م. ماجد الـزهـر

قصائد مختارة

من أشعار رسول حمزاتوف

ترجمة :

الدكتور مسوّح مسوّح

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

العنوان الأصلي للكتاب :

رسول حمزاتوف

رسول الشعر

ولد رسول حمزاتوف عام ١٩٢٣ في «تسادا» وهي قرية من قرى داغستان الرابضة في أحضان جبال القوقاز. كان والده حمزة تساداسا شاعراً، نظم الشعر بلغته القومية، اللغة الآفارية، ونظم الشعر باللغة العربية أيضاً، وأكثر شعره الغزلي نُظِمَ باللغة العربية. ورث رسول حمزاتوف موهبة الشعر عن أبيه، وورث معها موهبةً استوعبت كلَّ حكمة الجبال العملاقة وأساطيرها وبساطتها. عَمِلَ معلماً في شبابه، ثم تخرج في «معهد غوركي» للأدب في موسكو عام ١٩٥٠ فتعرف فيه على الشعر العالمي ومدارسه وقوالبه مما أكسبه خبرة خاصة أغنت تجربته من دون أن تُفقِدَ تلك التجربة بكارتها وارتباطها ببلده داغستان وتاريخ صراعه ضد القياصرة ثلاثين عاماً متواصلةً كانت فيها الرصاصة أعز على المقاومة القوقازية من جرعة الماء ورغيف الخبز.

كتب رسول حمزاتوف خلال حياته أكثر من مئة كتابٍ بلغته القوميّة (الآفارية) في الشعر والنثر الفني والمقالة... وبرز شاعراً داغستانياً قومياً منذ صدور ديوان الأول عام ١٩٤٣ وكان عنوانُه «شعلة الحّبِّ ولهيب الكراهية» ثم صدر ديوانه الثاني. «أصداء الحرب» عام ١٩٤٥، ثم تتالت مجموعاته الشعرية: «أيتها الأرض يا أرضي» ١٩٤٨، «العام الذي ولدت منه»١٩٥٠، «كلمة عن الأخِ الأكبر»١٩٥٢، «حوار مع أبي» - ١٩٥٣، «وَطن ابن الجبال» - ١٩٥٥، «بنت الجبال» - ١٩٥٨، «قلبي في الجبال» ١٩٥٩، «النجوم العالية» ١٩٦٢، «كتابات» ١٩٦٣، تقولُ نجمة لنجمة» ١٩٦٤، «السمراء» ١٩٦٦، «عند الموقد» ١٩٦٩، «سُبْحَة السنين» ١٩٧٣، «صونوا أُمَّهاتكم» ١٩٧٨، ثم «كتاب السونيتات» ١٩٨٣، و«ملاحم» ١٩٧٨، لتتوالى بعدها إصدارات المختارات والأعمال الكاملة (حتى حينِ صدورها). نَظَم حمزاتوف قصة شعرية ترجمت في ثمانينيات القرن الماضي إلى العربية، عنوانها «داغستان بلدي» وصدرت من وزارة الثقافة في دمشق.

عاش حمزاتوف يحمل أغنيته أينما ذهب، ويوصي كلَّ إنسانٍ أن يحمل أغنيته معه أينما ذهب، إذ إن حملها لا يشكل عبئاً ثقيلاً، فأغنية الإنسان هي الوطن الذي يغسل ندى صباحه البارد أقدام المتعبين، وتغسل مياه سواقيه جباه أبنائه، الأغنية عنده هي

الإنسان ذاته، الإنسان الذي يعيش على هذا الكوكب، إلاّ أن حمزاتوف لم يعشق أرضاً كما عَشِقَ أرضَ بلاده الصغيرة الجبلية التي فتحها العرب في القرن السابع الميلادي وظلت الثقافة العربية تسودها نحو ألف عام، حينها كان شعراء داغستان يكتبون بالعربية، قبلَ أن تظهر لديهم الكتابة الآفارية... وكانت قصائد شعراء داغستان تتناقلها الألسنة شفاهياً، أما الكلمة الشعرية فكانت كلمة من كَرَّس نفسه لمقاومة الطغيان.

خَرج رسول حمزاتوف إلى العالم ومعه قيثارة الشاعر المحملة بالألحان الآفارية وتقاليدها، وكانت ينابيعه الشعرية مستقاة من «أبو طالب» و«حمزة تساداسا» وسليمان ستالسكي.. وكان من الطبيعي أن يكون حمزاتوف، كأسلافه من شعراء داغستان الذين نفخوا فيه روحهم، يعظِّم الإنسان ويحترمه – فالإنسان هو ذاك الجبلي الذي يبني بيته عند أعشاش النسور، ويزرع القمح ويجني العنب تحت شمس الأعالي. لم تكن أهمية رسول حمزاتوف في التعبير عن حكمة شعبه، لأن أهمية الشاعر – كما يعتقد حمزاتوف – تكمن في أنْ يصوغ الحكمة التي عجنها شعبه. الشاعر عند حمزاتوف هو رسول الشعب وحامل كلمته المقدسة، كما قال في كتابه «داغستان بلدي». ارتقى حمزاتوف إلى مستوى كبار الشعراء ليقف في صفٍ واحدٍ مع أهم مبدعي

الكلمة في العالم، ومع ذلك ظلَّ محافظاً على نكهته القومية المطعمة بروح إنسانية وفنية عالية، وكان ذلك السمةَ الأهم من سمات شعريته. إنها موهبةٌ صهرت علماً واسعاً وعملاً دؤوباً وموهبة إبداعية كبيرة تركت بصماتها على التجربة الجمالية والشعرية في العالم، فهو يغوص إلى أعماق الإنسان الداغستاني ليتغنّى به على قيثارته الشعرية بنغماتٍ مُطَعّمة بالفلسفةِ والإحساسِ بالكون، لتصبحَ قصائدَ تَعْبُر الكونَ مكتسبةً كونيتها.

عندما صدرت مجموعة «النجوم العالية» نال حمزاتوف جائزة لينين، وكانت مجموعته تلك مشبعةً بروحٍ شرقية وبأنفاس الشعراء المشرقيّين بدءاً من القرن العاشر وحتى القرن الثامن عشر لكن بعضهم انتقد حمزاتوف، الذي كان حينها عضواً في مجلس السوفييت الأعلى ممثلاً عن شعب داغستان، زاعمين أن شعره مُشبَعٌ بفكر سياسي يطغى على الجمالي فيه. وكان ردُّ حمزاتوف: «لأن قصيدتي ليست عضواً في الحزب الشيوعي» كان الإنسان هو الشخصية الأبرز في تلك القصائد، بما يحيا به ذلك الإنسان من هموم دنيوية وجودية. وعندما احتفل العالم بميلاد حمزاتوف الستين فاز في روما بجائزة «شعر القرن العشرين» على إبداعاته الشعرية وخاصة «ناقوس هيروشيما» و«صلاة».

عندما نبحث في شعر رسول حمزاتوف لا بدَّ لنا من الاعتراف أولاً أنه شاعرين الحقبة السوفيتية، وأنه كان مواطناً في دولةِ عظمى كان اسمها اتحاد الجمهوريات الاشتراكي السوفيتية الذي ضم قوميات قارب عددها المِئةَ أو تجاوزها، كان لكل منها خصوصيّته وأدبَه، وفي السنة العشرين من حكم السلطة السوفيتية كانت الكتب (بما في ذلك كتب الأدب) تصدر بـــ ١١٨ لغة من لغاتِ شعوبِ الاتحاد السوفييتي، وتطورت خلال ذلك الآداب القومية بشكل ملحوظ كالأدب الأرمني والجيورجي والبِلوروسي الأكراني... وبعض هذه الآداب لم يكَدْ يعرف الطباعة والمطبعة واللغة المكتوبة قبل عهد السلطة السوفيتية، كما أن بعض أدباء القوميات التي احتواها الاتحاد السوفييتي نال شهرة واسعة وترجمت أعماله إلى اللغة الروسية وغيرها، وهو ما حدث لشعر رسول حمزاتوف الذي وصلنا بالروسيّةِ ولم نَعْرِفْه بغيرها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنَّ أَدب الجمهوريات والقوميات السوفييتية خطا خطواتٍ واسعـــةً في انتشاره وتأثره – أو التزامِهِ - بالواقعية الاشتراكية. وقد أسهم الاتحاد السوفييتي في تطور أدب شعوبٍ صغيرةٍ لم يَكن تعداد سكانها ليتجاوز المليون نسمة، منها الشعب الداغستاني الذي كان أبناؤه يتوزعون على سبع لغات. يشير جـــلال فاروق الشريف في دراسته

التاريخية والتحليلية الموجوزة عن الأدب السوفييتي إلى أن نقاد الأدب يقسمون الآداب الوطنية في الاتحاد إلى ثلاث مجموعات؛ تضم المجموعةُ الأولى الآداب التي تقترب من الأدب الروسي من حيث درجة تطورها وأشكالها وتقاليدها كالأدب الأَكراني والليتواني والآستوني... وهي آداب من النمط الأوروبي... أما المجموعة الثانية فتضمُّ النموذج المختلط. ويسيطر. الشعر والأشكال الأدبية الذاتية على آداب هذه المجموعة... ولم يظهرِ النثر في هذه المجموعة إلاّ متأخراً، وهي تخضع لتأثير الشعر الشعبي غير المكتوبِ والفلكلور تأثيراً مباشراً.. ويمكن أن يدخل في عداد هدد المجموعة الثانية الأدب التركماني والأزبيكي والكازاخي والقيرغيزي وجزء كبير من الأدب الداغستاني... أما المجموعة الثالثة فيمكن أن تصنَّفَ فيها آداب القبائل والسكان نصف الحضريين الذين لم تكن لهم لغة مكتوبة... وكان الأدبُ الشفوي الشكل الوحيد من الإبداع الأدبي المسيطر على الحياة. لكن تحولَ لغة شعوب هذه المجموعة إلى لغة مكتوبة والانتشار السريع للتعليم أدَّيا إلى ظهور جميع الأشكال الأدبية الأوربية فيها. إن تقسيم الآداب السوفيتية إلى هذه المجموعات الثلاث هو بطبيعة الحال مسائل اصطلاحيّة. وما تشترك فيه الآدابُ جميعاً هو أنها تسعى إلى خلق البطل الإيجابي الجديد – وإلى رسم

صورة الواقع بكل تناقضاته. إنها آداب متعددة من حيث الشكل، لكنها تكاد في مجموعها تلتزم بمنهج الواقعية الاشتراكية. إلا أن رسول حمزاتوف يستعصي، على كُلَّ تلك التصنّيفات في مجموعاتِ أو مدارس أو مذاهب، ولم يكن ليشعر بضيق أو زحمةِ وهو بين هذه المجموعات الملتزمةِ بالواقعية الاشتراكية أو بغيرها، لأن حيوية موهبته جعلَتْ شعره يخترق الحواجز التي تقيمُها أو تنتجِهُ من قوالب أو حُجب أو موانع، وكان هذا بادياً بوضوحٍ في نظرته إلى الكون وفي رؤيته الجمالية. ويمكن أن يُفَسَّرَ ذلك أولاً بأن حمزاتوف لم يكن شاعراً «عادياً» ولم يكن واحداً من الشعراء النّظّامين الذين لا علاقة، لهم بالإبداع، بل كان مبدعاً حقيقياً ومفكراً يحمل روح الحكمةِ والفلسفة وشاعراً يمتلك قدرة تحليلية وإدراكاً عميقاً للعالم وما يجري فيه من أحداث. كان رسول حمزاتوف في وعي جمهوره شاعراً مَرِجاً محباً للحياة، حتى إن شاعر لاتفيا «إدوارد ميجيلايتس» وَصَفَه بأنه «المتفائل الصلبُ إذ إنَّ حمزاتوف ليس متفائلاً وردياً بل حديديٌّ».

كانت موضوعات «المجتمع والفرد» و «الدولة والإنسان» من الموضوعات الملحة التي لا تغيب عن ذهن حمزاتوف. ويرى كثير من النقاد والدارسين أن شعر حمزاتوف يشكل كتاباً كلياً يجمع بين دفَّتيه ثنائياتٍ تكشف جوهر الإنسان:

الحكمة / الشجاعة، الحب / الكراهية، الألم / الفرح، الدعاء / اللعنات، الراحة / العذاب، الحقيقة / الزيف، الآنيَّة / الأبدية. وهي ثنائيات تشير بجلاء إلى أن هَمَّ حمزاتوف الأول كان الكشف عن ماهية الإنسان وروحه.

عاش رسول حمزاتوف أيامه الأخيرة في ماختشكالا («مَحَجّ قَلْعة» أو «القلعة المحج») عاصمة داغستان وسكن فيها في بيت صغير مثل أيّ رجلٍ بسيطٍ يحب المَرَحَ والحكمة والنبل. ثم تزايدت عليهِ – بعد أن قارب الثمانين – وطأةِ مَرَضٍ عصبي أصابه بالرُّعاش... قال قبيل وفاته: «ظَهَرَ في روسيا الآن ما سَمُّوه بالسوق؛ صارت البندورة أغلى من البشر، وصار بالإمكان شراءُ كل شيء الضمير والبطولة، والموهبة والجمال، الأرض والأمّ... كلها صارت سلعاً... وتبدلتْ مواقف كثيرين... يمكن للمرء في الواقع أن يُبَدِّلَ قُبَّعَتَهُ، لكنْ لا يمكنُ لرجلِ شريفِ أن يُبدِّل رأسه». كان «حمزاتوف يسخر من كلّ أشكال العظمةِ ويقولِ الحمد لله أن أحداً لا يقول لي. أنت عبقري، لأن العباقرة هم أولئك الذين يفعلون ما يعجز الناس عنه فعله». وقبل أن يُتَوَفى عام ٢٠٠٣ قال: «حياتي كلُّها كانت مًسَوَّدَةً كُنْتُ أتمنى لو امتلكت الوقت لتصحيحها، إنها مُسَوَّدَةٌ كُلُّ ما فيها ينضح حكمةَ ومحبّة.

الترجمة قراءةٌ جديدة لنصِ لم يعد جديداً ما دمنا قد شرعنا في ترجمته. وكلُّ قراءة جديدة لا بد من أن تصدر عن قارئٍ جديد

يصير مترجماً في حالتنا هذه. وكل قراءة تَؤُول إلى ترجمة لمختاراتِ تبدأ من سؤالِ: ماذا نختار؟ واختيار هذا المترجم لافتٌ للنظر، إذ يبدو لنا واضحاً أنه انطلق من قراءة الأعمال الكاملة لرسول حمزاتوف؛ وطبعاتُها بالروسية كثيرة، أمّا المختارات فهي أكثر. لكن المترجم لم يلجأ إلى المختارات بالروسية لأن الاختيار فيها يقوم على دوافع أخرى، أيديولوجية وتربوية وقومية وغير ذلك، وغالباً ما تعد لطلبة المدارس والجامعات، لذا وجدنا فارقاً بين ما تحويه تلك المختارات وما اختاره مترجم هذا المخطوط ممّا ينُمُّ عن ذوق جمالي ومعرفةِ بيئيةِ بعالَمِ داغستان وخطاب حكيمها رسول حمزاتوف، الحكمة مرجعٌ أولُ في شعره، تهيمن مع الشعرية Poetics على كل المكونات الأخرى من أيديولوجية وتربوية وتعليمية وما شاكل ذلك، فقدَّمت المختارات لنا شاعرَ قومِهِ الحكيمَ، الذي فارق المَحلّية إلى الكونية فصار شاعر قَرْنِهِ هذا إذا أردنا الحديث عن الزائر الأول في هذه الترجمة وهو المختارات. لنتأمل عنواناتها أولاً قبل أن ننتقل إلى الترجمةِ (الصنعةِ / الفنِ / اللغة).

- عندما أجوب العالم البعيد (وهو ترجمة دقيقة للسطر الشعري الأول في القصيدة).

- لكلَّ إنسانِ يومٌ ولِدَ فيه (وهي ترجمة شعرية للسطر الشعري الأول نأتْ عن الحرفية. لأن الترجمة الحرفية

لذاك السطر: «لا وجود لإنسان ليس لديه يومَ ميلاد» وهي ترجمة سعت إلى التوافق مع روح النص الأمِّ وشعريته.

- مع أنني لستُ زنبقاً..

- لن تَجدي منافسةً لكِ أبداً.... وهكذا تمضي العنوانات، والعنوان علاقة سيميائية مفتاحٌ للدلالة يقودنا إلى أن المختارات قامت على هيمنَةِ نزعةٍ إنسانيةٍ عارمةٍ محكومةٍ بالحكمة، التي تقول: «أنا رأيتُ كل شيءٍ» وتتساءَل: «ماذا أستطيع أن أفعل؟» وتغتربُ «حين لا يوجد قربكَ صديق مخلصٌ».. وتتذكر «لَوْ لَمْ تُغَنِّ لي أمي!» وتجلس «قرب الموقدِ» متأملاً، وتظل الحربُ ماثلة أمامك بمآسيها وآلامها وتضحياتها «ها أنا ذا أرى ذلك الجنديَّ ثانية» وقد «غَطَّى الشيب رأس خطيبته» من زمن لم يعد يذكره أحد. ثم ترى اللقالِق تأتي... ولا تأتي إلاّ إذا حَلَّ السلام» هي لقالقُ وليست غربان تتابِعُ الجِيَف.. تطير لتقطع دربها الطويل عابرةِ السماء فوق السهوبِ المتعبَة التي لم تعد مغطاةَ بدماء...

إن المقارنة الدقيقة بين النص المصدر والنص والهدف تؤكد دقة الترجمة، لكن الدقة ليست كلَّ شيءِ في نَقْل النص، إذ لا بد من الحفاظ على روحهِ في النصِّ الهدف، ومثل هذا الحفاظ لا يتم إلاّ بمعرفة كاملة بدقائق اللغتين: الأم الأولى والأم الثانية ويخيل لي أن مترجم المخطوط شاعر يعرف دقائق لغته العربية،

ويعرف أيضاً دقائق لغةٍ يخيّل لي أنه أحبها وتمثل روحها عندما نقلها إلى عربيته. وقد عرف هذا الروح في اللغتين قصدياً وإيحائياً، أسلوبياً وبلاغياً، عرفهما في رهافتهما وشعريتهما، هل المسألة مسألة ذوقٍ؟ لا! إنها مسألة حسٍ جمالي وإبداعٍ وصنعة.

وعلى هذا فقد جاءت لغةُ الترجمة سليمة لم نعثر فيها على لَحْنٍ نحوي أو صرفي، ولم نلحظ فيها خللاً أسلوبياً، وكانت سلسا بحثت عن اليسر الذي اتسم به شعر حمزاتوف بعيداً عَمّا يسمونه جزالةً ... فجاءت متوافقةً مع روح النص الأصل.

وهناك جانب آخر لا بد من الإشارة إليه، وهو مقاربةُ إيقاع النص ما أمكن ذلك. وإذا اتفقنا أن الإيقاع تكرار لوحداتِ متساوية يمكن أن تكون صوتية كما يمكن أن تكون نحوية، تكراراً لتراكيبَ وجمل بصيغٍ متشابهة ينتج عنه إيقاع، وقد سعى المترجم إلى مثل هذا النوع من الإيقاع، نلمس ذلك في كثير من القصائد، نذكر مثالاً:

المطر ينهمر أمام النافذة – أفكر بِكِ

الثلج يغمر الحديقة ليلاً – أفكر بكِ

الصباح ربيعيٌ في الفجر – أفكر بكِ

الصيف يقرعُ البابَ – أفكر بكِ

هذا هو المقطع الأول، بدأ باسم فعرف بأل ليكون مبتدأً خبرهُ حملةٌ فعليةٌ ممّا شكّلَ إيقاعاً رديفاً... ورتيباً رتابةَ تتالي الفصول الأربعة: الخريف والشتاء والربيع والصيف، ثم تنتهي الرتابة في المقطع الثاني فيتغير التركيب ليصبح جملة فعليةً تدل على حدث:

تعود الطور – أفكر بك

تخضر الشجيرات – أفكر بك

لا أقوى على شيءٍ – أفكر بك

ثم تأتي القفلةُ: ما أظنُّ إلا أنكِ فتاةٌ طيبة

مادمتُ ليلاً ونهاراً أفكر بكِ.

لم يَشَأِ المترجم أن يغيِّرَ من التوزيع السطري للقصائد حرصاً منه على الحفاظ على هذا النوع من الإِيقاع، وكذلك الحفاظ على ما نسميه فضاء النص.

يمكن لأيَّ اثنين أن يختلفا في دقةِ الترجمة إذا حصرا نفسيهما في حَرْفيتها. لكن الترجمة – كما أعتقد وكما تشير لسانيات الترجمة – تقوم في دقتها على مراعاة نوعين من العلاقاتِ النصيّة: علاقات النظم والسياق (السينتاغماتية)، وعلاقات الاستبدال (البَرَدغماتية) التي تُمَكِّن من اختيار وحدةٍ في جدول دلالي يفضلها هنا المترجم على غيرها ليضعها في سياقٍ نَظَمَهُ

في تركيب انتقاه أيضاً من خيارات عدة، وهذا ينقل فنيَّة الترجمة من حَيَّز دقتها – الذي لا بد منه - إلى حيِّزِ شعريتها. وعلى هذا فقد انتقى المترجم – مثلاً - لفظة: (صباح) ولم يأخذ لفظة (فجر) أو (شروق) أو غيرهما من هذا الجدول الاستبدالي... وله الحق في اختياره، وتتباين الاختيارات وفقاً لتمثلِ المترجمِ روحَ النص وروحَ صاحبه مع ما تؤثر فيه ذائقته الشعرية.

معرفة عميقة باللغة الروسيّة وحساسية جماليّة انتقلت إلى النص المترجم لتعكس ذائقة شعرية عالية تمثلت في اختيار القصائد وفي صوغِ الترجمة. وإذا كان القارئ العربي - والسوريَ خصوصاً – قد تعرَف على «داغستان بلدي» فإنّ ما تُرجم من شعر لحمزاتوف قبل هذه الترجمة أساء إليه ولم يُحسن، لأن تلك الترجمات لم تتسم بتلك الشعرية التي تميّز رسول حمزاتوف. وإذا كنا نعتقد جازمين أنّ لا وجود لترجمة تدّعى الكمال والأمانة التامة فإنّ هذه الترجمة قاربت الكمال ولامست جلال الشعر، جلال الشرق وبهاء قصائده عند رسول الشعر القادم إلينا من داغستان من جديد في حلة ناصعة البياض.

وتتسم هذه الترجمة بسلاسة لغتها ونأيها عن التقعّر وخلوها من تصرَف المترجم وحشوه لتبقى صافية نقيّة تنقل روح الشاعر في محاولة لبعث شعرية القصيدة في النص المترجم، وهي محاولة لن تصل إلى الكمال، إذ إن ترجمة الشعر خيانة له، لكن مترجمنا نأي بنفسه عن ذلك حين أصاب هدف الإخلاص للقصيدة.

رسول حمزاتوف

شاعر القرن والأبد

لتلك النجوم البعيدة
في قبة الكون
طارت
وسوف تطير
مئات المراكب
نحو الفضاء البعيد

يا أيها الناس
يا أيها الناس
أنتم نجوم السماء الفسيحة
كم أتمنى
ولو مرةً
أن أطير إليكم
أطير.

رسول حمزاتوف...

روما.. مركز الشعر العالمي.. هنا تجلس لجنة ٌمبجلة ٌمن أدباء ومثقفيّ روما. يستمعون بإمعان ٍلإبداع شعراء من مختلف أنحاء العالم.. تدرس اللجنة كلّ كلمة ٍمما يوضع أمامها من أشعار مترجمة إلى اللغةِ الإيطالية دون معرفة مؤلفها ودون وجوده.

وها هو ذا الاحتفال النهائي. يقف رئيس اللجنة ليقرأ أمام الحضور قصائد بعناوين: صلاة، واحفظوا الأصدقاء، واللقالق. التي تبين أن مؤلفها رسول حمزاتوف. ذو الشهرة العالمية صاحب الأشعار ذات الاهتمامات العالمية.

غالباً ما ألتقي في روسيا بعضا من الناس الذين لا يعرفون شيئاً عن داغستان. حتى أن بعض موظفي مراكز البريد في موسكو يسألوني حين أرسل رسائل إلى داغستان أين تقع هذه وهل هي تابعة لروسيا؟

داغستان البلد الصغير الذي أهدى روسيا والعالم علماء وشعراء وسياسيين ومحاربين وعلماء دين ٍ وفنانين وفلاسفة، صاغةً وموسيقيين ومهندسين وأطباء. لقد لمعت شخصية إمام شامل العالم بأصول اللغة العربية والمثقف الكبير الذي كانت ترافقه حيثما ذهب وحتى خلال حملاته العسكرية مكتبته الكبيرة محملة على ثمانية خيولٍ. لقد كان إلى جانب ذلك قائداً لحركة التحرر في الحقبة القيصريّة، خلال الحرب القفقازية الأولى.

كما لمع ويلمع حالياً اسم عظيم ٍ آخر من داغستان في مجال الطب هو جراح العظم والمفاصل «ايليزاروف» ذو الشهرة العالمية الذي كان يتلقى من رسول الكثير من الطلبات لمساعدة المرضى الذين يعانون من أمراض ٍ مستعصية ٍ في عظامهم. لقد طلبت من الدكتور مسوح أن ينقل إلى العربية قصيدة رسول عن هذا الجراح.

لقد لمع اسم رسول حمزاتوف كعلم ٍ وشعار ٍ ونجمة، كجواز سفر ٍ لروسيا السوفيتية وما بعدها. لقد حالفني الحظ أن أكون ولفترة ٍ طويلة ٍ من أصدقائه المقربين. كنت مرات ٍ عديدة ٍ في بيته في «موسكو وماخاتشكالا» كما أنه للأسف نادراً ما زارني.

حين كنت أدرس الطب في داغستان، نظم رسول وأصدقاؤه من الشعراء أمسيات ٍ شعريّة ٍ رائعة ٍ للطلاب. حين أهدينا للشاعر مريولاً مما يرتديه الأطباء قال: لقد أصبح عندي بطاقة دخول ٍ لزيارة أصدقائي في المشافي – إذ أنه في تلك الفترة كان الدخول إلى المشفى يستدعي ارتداء المريول الأبيض – ومع أن لا أحد يمنع رسولاً إلا أنه لم يكن ليخلّ بقوانين مجتمعه قط.

كان رسول يتعامل مع جميع الناس دون أي تفريق يقدم نفس الاحترام للعامل والفلاح وممثل الحزب والدولة أحب الناس وبادلوه الحب. لم يكن يقسم الناس حسب انتمائهم القومي أو العرقي أو الديني أو السياسي، بل إلى مضجرين ومحبي الحياة. لقد التقى خلال حياته كبار زعماء العالم، علماء وسياسيين أدباء وفنانين، كان

اللقاء به ممتعاً دوماً. لقد شغل منصب عضوٍ في مجلس السوفيت الأعلى لربع قرن، كان الناس يقرعون بابه حاملين مطالبهم ليهتم بها. لقد طلب لمرات عديدةٍ مني أن أهتم بعلاج المرضى الذين طالما وجههم إلي، لم أطلب منه شيئاً لعلمي بانشغاله الدائم.

صدف أن انقطعت فترةً عن الاتصال به ففاجأني بهاتفه قائلاً: هل نسيت شاعر الشعب الداغستاني؟ لقد كان يحمل هذا اللقب.

سألته يوماً : كيف تجد الوقت لكتابة الشعر رغم انشغالك الدائم؟ قال: أستيقظ مبكراً حين يساعدني الشروق صديق إبداعي أن أفكر بمجمل نهاري القادم. تزورني الأشعار حين أودع صديقاً محمولاً على خشبته أو حين أرى نظرات العشاق، حين أرى جمال الحياة ومعاناة البشر، حين يهزني جمال امرأة. لقد ترك في آخر رسالةٍ وصيةً يقول بها: أيها الداغستانيون احفظوا كرامة داغستان والنساء الجميلات.

لقد أهدى لي رسول كل كتبه موقعةً كما أهدى لعديد من أطباء موسكو بناءً على طلبي لقد كان من الصعوبة بمكان الحصول على كتبه في موسكو بالرغم من تكرار طباعتها وعديد نسخها، لقد كانت مطلوبة جداً.

في أمسياته الشعرية في موسكو كان يتجمع الكثير من المهتمين بأدبه وإبداعه، وكان رسول بعد أمسياته يقول لي: ما الذي يدفع الناس لحضور أمسياتي؟ لست جميلاً ولست أجيد الكلام ومن الأفضل لهم قراءة كلماتي من سماعها كما أنه من

الأفضل لهم أن يسمعوني من أن يروني. ربما يأتون لسماع ولو نصف كلمةٍ من الحقيقة.

كنت مرةً في إحدى أمسياته الشعرية في قاعة تشايكوفسكي، كانت تجلس بين الحضور رائدة الفضاء الأولى «فالينتينا تيريشكوفا ». تلقى رسول رسالةً قصيرةً من القاعة يسأل أحد الحضور: يا رسول من أين لأشعارك كل هذه العبقرية؟. أجاب حالاً: لا تجوز كتابة أشعارٍ سيئة عندما ستقروها أو تسمعها امرأةٌ رائعةٌ أسطوريةٌ مثل«فالينتينا تيريشكوفا».

كان رسول محباً للحياة يجيد تقييم الجمال والرجولة اعتُبِر دوماً مغني الحب والنساء، حتى أن مجموعةً من أشعاره كانت تحت عنوان «دستور الحب» تداخلت في هذه الأشعار النكتة الناعمة مع عبقرية الفيلسوف. كان التفاؤل يشع من رسول على الدوام. كنت أحس أن هذا الرجل أتى إلى الحياة ليعيش إلى الأبد. غنى عن الشرف والكرامة، وكان قاسياً أحياناً في إطلاق أحكامه. في آب ١٩٩٩ حين دخلت مجموعةٌ عالميةٌ متطرفةٌ مسلحةٌ من الشيشان إلى داغستان تحت قيادة الإرهابي المتطرف «باسايف» والأردني«خطاب» أعلن رسول على الملأ: هؤلاء ليسو برجال.

وبحقٍ فقد اعتبره الناس شاعر «تسادا» أي قريته الصغيرة في جبال داغستان وشاعر الأرض فها هو ذا يصرخ ملأ فمه رافعاً يديه نحو السماء:

كثيراً ما أفكر

أن الأرض كلها وطني... بيتي

أينما وجدت المعارك والنار ورعد المدافع

يحترق بيتي. يحترق بيتي

لقد تحول بيت رسول في قريته «تسادا» - التي تعني بلغة الشاعر الأفارية لهبٌ أو شعلة - حيث عاش مع والده الشاعر حمزة وأمه وإخوته إلى متحف يضم بعضاً من آثاره إلى جانب صور الأسرة وبينها صور أخويه اللذين استشهدا في الحرب ضد الفاشية.

لقد عانى رسول دوماً من أمراضٍ عدة إلا أنه لم يكن يُسمع أحداً شكواه، كما أنه لم يدخل المشفى إلا حين كانت تفرض ذلك عليه زوجته فاطمة صديقته الرائعة التي كانت تهتم به دوماً. صدف مرةً حين كان في المشفى أن سألتهُ: كيف صحتك يا رسول فأجاب حالاً: لا يليق أن تكون سليماً في مجتمعٍ مريضٍ، كما لا يجوز إعطاء قيمةٍ عالميةٍ لمرضك الخاص.

حين طلب مني الدكتور مسوح من مدينة حمص في سوريا أن أكتب له مقدمة كتابه «قصائد مختارة من أشعار رسول حمزاتوف» استقبلت هذا الطلب كشرف كبير، وحين بدأت الكتابة أحسست أن الواجب أن أكتب أيضاً كتاباً كبيراً في التأمل والتفكير بحياة هذا الشاعر العظيم بشعره وشخصه، لعلّ الزمن سيتيح لي تحقيق ذلك.

لقد لفت انتباهي في سورية اهتمام الناس بالآداب والثقافة ولقد سمعت الكثير من الإطراء لكتاب رسول «داغستان بلدي» كما ويذكر السوريون قدوم رسول إلى سورية وأمسياته الشعرية في دمشق وحمص وغيرها.

لقد لاقت طباعة كتاب «داغستان بلدي» صعوباتٍ كثيرةٍ في الحقبة السوفيتية إذ إن الكتاب خلا من أي مدحٍ للسلطة، بل اقتصر على تبجيل الشعب الداغستاني وتاريخ بلده. لقد وجد رسول نفسه مضطراً للحصول على الموافقة لطباعة كتابه أن يلتقي مع العديد من قادة الحكومة والحزب ومن بينهم «سوسلوف» الذي قال له: يا رسول زوجتي تحبك فأجاب رسول: وما الذي يمنعكم أنتم من محبتي؟ لقد حاول رسول إتمام كتابه هذا إلا أنه للأسف لم يستطع ذلك.

التقيت في مدينة السويداء في سورية أحد محبي رسول. قال لي: اشتريت في شبابي خمس نسخٍ من كتاب داغستان بلدي، أهديت خطيبتي ووالدها وأخيها وابن عمها لكلٍ نسخةً لعلّ قراءة رسول تفهمهم معنى الحياة. وحين ولد ابني البكر أسميته رسول. لم يجد حظاً في العيش. توفي بمرض عضال، فما أن رزقت بطفلٍ آخر حتى أسميته رسول أيضاً. وهذا الطفل الآن يعلن أنه عندما سيكبر سيسافر إلى داغستان ليتعرف على بلد رسول حمزاتوف.

عن إبداع رسول كتب الكثير من الأدباء. تناول حياته وأشعاره العديدُ من عشاق أدبه. لقد لفت انتباهي تعبيرٌ رائعٌ قرأته في مجلة الينابيع حيث أسماه الدكتور مسوح رسول الشعر.

يهتم الدكتور مسوح بالشعر والأدب والموسيقى الروسية، فقد نقل إلى العربية الألحان الفارسية للشاعر الروسي المبدع «سيرغي يسينين» وبعضاً من أشعار «آنا أخماتوفا»، وبعض القصص القصيرة لــ «فيكتوريا توكاريفا»، كما نشرت له في المجلات الأدبية قصصاً قصيرةً لــ « أنطون تشيخوف » و«فيتشيسلاف بيتسوخ» وغيرهم.

شكراً لصديقي زميل مهنتي واهتماماتي الدكتور مسوح على هذا العمل الكبير الذي يلبي به نداء قلبه. وحتى الآن أنا أعرف أن كتب مسوح تهدى إلى أصدقائه ولا توجد في المكتبات للبيع. كم كان أحرى ببعض المهتمين أن يساعدوا كل عاملٍ في مجال الأدب لتقريب شعوبنا من بعضها.

أريد أخيراً أن أوجه الانتباه إلى غرابةٍ معينةٍ في روسيا الحديثة. ففي مدارس وجامعات روسيا لا يدرّسون إبداع رسول حمزاتوف كما يدرّس بوشكين وليرمانتوف وتولستوي ويسينين ونيكراسوف وغيرهم، كما أنهم لا يغنون الأغاني من أشعاره، ولم يُصدر إتحاد الكتاب الروس أي كتابٍ عنه بعد وفاته، وحاليا يشتهر من الأدب الروسي الكتاب البذيء والأغنية السوقية،

ما يجرح إحساس وشعور كل ذي حسٍّ وشعور. تخرج عن هذا القانون أغنية رسول اللقالق، التي لا تزال تعتبر صلاةً للدفاع عن الوطن وتغنى كل عامٍ بتاريخ ٩ أيار يوم النصر على الفاشية.

في «ماخاتشكالا» عاصمة داغستان تعمل لجنة رسول حمزاتوف العالمية وفي كل سِنة تسلم جوائز رسولٍ في الكونغرس الذي يقام هناك حيث يشاركٍ به الشعراء من كلِّ أنحاء العالم. وها أنذا أدعو مسوح إلى هذا الكونغرس

أستغلّ هذه الفرصة لأشير إلى أن الأدب العربي كان ينقل سابقاً إلى اللغة الروسية في عهد السلطة السوفيتية. أما الآن فلا يوجد في المكتبات قط نحن الروس مقصرين في هذا ونؤذي أنفسنا بهذا التقصير. أتمنى على السياسيين والمتمولين العرب والروس أن يمولوا نقل إبداع الأدباء العرب إلى اللغة الروسية.

إن طريق الشعر أقصر الطرق لتواصل قلوب البشر، والقصص والروايات أهم الدبلوماسيين.

محمد عبد الخبيروف

موسكو ٢٠٠٨

عندما أجوب العالم البعيد

عندما أجوب العالم البعيد
وأرى حدود الأرض المتنوعة
أفكر بقلقٍ وحزن
أن الناس قدموا إلى الحياة عن طريق الخطأ

ولدوا ليعيشوا مع أهلهم
أتوا إلى الحياة اعتباطاً
حيث يجهل الجميع أسماءهم
حيث لا أحد يسعد لقدومهم

حيث يغني كلٌ منفرداً وحزيناً
حيث لا يلحظ الناس بعضهم بعضاً كأنهم في ضباب
حيث يصلي ويشكو كلٌّ واحدٍ
باللغة التي يفهمها وحده

لكن غالباً ما تقودني قناعةٌ
أن البشر أتوا إلى العالم مندفعين
وَضلّوه ليس بسبب ضلالهم
بل ضلوا بسبب قدومهم إليه

الطرقات المتشابكة الأحداث المريعة
تضللهم وتقصم ظهورهم
ها هم يصرخون لكن صراخهم «ساعدونا»
لا يسمعه من يستطيع مساعدتهم

أصحيحٌ أن روحنا خاليةٌ من ذكاءٍ
يكفي لفهم صراخ مستنجدٍ قلق
أصحيحٌ ليس في العالم «أسبيرانتو»
للكلمات الطيبة وكلمات الحب؟

تبنى البيوت في مناطق الجليد الدائم
وحيث كانت الصحراء نجد الحدائق
لم تبق سوى طبائع البشر
كما كانت منذ مئة قرن

* * *

لكل إنسانٍ يومٌ ولد فيه

لكل إنسانٍ يومٌ ولد فيه
وهذه حقيقةٌ مثبته
لقد رأيتُ النورَ في أيلول
وولدت أنتِ في كانون الأول.

لكني قابلت أناساً آخرين
ولدوا مرةً ثانيةً - من جديد
قابلتهم مراراً في «براغ»
وبعضهم من معارفي الشخصيين.

هناك عندهم عادةٌ أو قانون.
حين ينقذ طبيبٌ حياة مريضٍ
تعطى وثيقةٌ له
تثبت أنه ولد من جديد.

يقال له ها قد عدت
من ذلك العالم الآخر.
وهذه وثيقةٌ جديدةٌ لك

تثبت هذه الحقيقة.
لكل إنسانٍ يومٌ ولد فيه
وهذه حقيقةٌ مثبته
لقد رأيت النور في أيلول
وولدتِ أنتِ في كانون الأول.

لكن أحد أيام أيّار
لن يكرر ثانيةً أمامي.
حين أجبتني بكلمةٍ واحدة
على سؤالٍ من كلمتين.

وهذه الكلمة حالاً
أصبحت لي مصيراً
يومها وبوضوح النهار
ولدنا وإياكِ من جديد

وعندنا الوثائق الثبوتية
جميع الأغاني التي كتبتها لكِ
لم أتلفها... وفي كل مرةٍ
أضع توقيعي تحتها.

* * *

مع أنني لست زنبقاً، ولِستِ ليلكاً

مع أنني لست زنبقاً، ولِستِ ليلكاً
لن يعارضَ قطفنا يوماً ما
عاملُ حديقةٍ أبيضُ اسمه النهار
أو أسودُ اسمه الليل.

مع أنني لست قمحا، ولست شعيراً
ليس باستطاعته أن يرحمنا
حصّادٌ أبيضُ الوجهِ اسمهُ النهار
أو أسودهُ اسمه الليل.

مع أنني لست أيلاً، ولستِ غزالاً
لن يقاوم إغراء صيدنا
صيادٌ أبيضُ اسمه النهار
أو أسودُ اسمه الليل.

صيادٌ أبيضُ يراقبنا
صيادٌ أسود يطلق علينا
ألن ترتجف يد الأول؟
ألن يخطئ الثاني هدفه؟

* * *

لن تجدي منافسةً لكِ أبداً

أحبُ الليالي كالحةً سوداءَ كالبارود.
أحبُ عشّي العزيز – «تسادا»[1].
أحبُ كل النساءِ، اللواتي بينهنّ
لن تجدي قطٌّ منافسةً لكِ.

أحبُ أن تبقى القممُ تحت نظري
بين حدودِ السماءِ وحدودِ الأرض.
لقد قسّمتُ نساء الأرضِ إلى قسمين
أنتِ، ومن بقي منهن.

أحبُ أن تحملني القطاراتُ المتلألئه
عبر السهوب المفتوحة.
أحبُ كل النساء، اللواتي بينهن
لن تجدي قطٌّ منافسةً لك .

---

(١) تسادا قرية الشاعر.

أقفُ على السور الحجري

أو أبحرُ قبالةَ الشواطئ الغريبة.

لقد قسّمت نساء الأرض إلى قسمين

أنتِ ومن بقي منهن.

* * *

المطر ينهمر أمام النافذة

المطر ينهمر أمام النافذة – أفكر بكِ

الثلج يغمر الحديقة الليلية – أفكر بكِ

يا لوضوح الصباح – أفكر بكِ

الصيف يقرع الباب – أفكر بكِ

تطير نحونا العصافير – أفكر بكِ

تطير عائدةً - أفكر بكِ

اخضرّت الشجيرات.

لا أقوى على شيء – أفكر بكِ

لعلكِ فتاةٌ طيبة

بما أنني ليلاً ونهاراً أفكر بكِ

* * *

لم أمت بعد

لم أمت بعد. كما أنني لم أشِخ.

لكنّ تنفسي أصبح أصعب.

أسمع جرساً: عله لي، أفكر حالاً،

أضع يدي على قلبي، وأصمت حزيناً.

وكما في الحلم ذهبتْ مع ثلج البارحة

أيامُ النجاحات والتكريم، وضجيج النقاش والمديح.

ولكن في هذا القرن ككلّ حكيمٍ

هناك من يحلم أن يبقى إلى الأبد ممتطياً حصانه.

لن يعشْ أحدٌ إلى الأبد.

أما أنا – فمعي حبٌ عظيمٌ يسقيني قوةً.

ومع أن شبابي قد اختفى

إلا أنني أشربُ كأسه المليء نوراً.

ومع أن العمر والزمن قد اختلفا عن ذي قبل

إلا أن حبي ونعومة حياتي لم تختبئا تحت الثلج.

وإن حصل والتقيت امرأةً رائعةً.

لن أهرب من كرم الحياة.

لن أتلوى بمرونةٍ كالأفعى.

ولن أستطيع التزحلق على الحبل كما لم أستطع سابقاً.

إلا أنني سأقول للقرن العشرين: لن أستسلم.

فالحب إلى جانبي ولن تغلبني أبداً.

* * *

أنا متزلف معروف

أنا متزلف معروف لديك
وأنا جاهز في أية لحظة
أن أمشي على الحبل أمام عينيك
وأن أركع أمامك

* * *

أسترضيك بالقمر والنار
بالزهور والغروب والمروج
لم أعتبرك قط مذنبة ولو لمرة
وأعتبر نفسي المذنب دوما

* * *

لقد تغلبت على الكثيرين دائماً
واعتبرت منذ ولادتي مصارعاً قوياً
لكنني دائماً أرفع يديّ أمامك
وأعتبر نفسي خاسراً

* * *

فأنا وأغانيّ لم يسبق لنا

أن تملقنا أحداً

لكننا نتملقك دوماً

وننتظر أوامرك لننفذها

* * *

آهٍ يا حياتي...

آهٍ يا حياتي المضطربةْ.

آمالي وأحلامي.

لستِ ملكا لي وحدي.

بل وللآخرين أيضاً.

لقد عكرتْ أحزاني

وآلامي وأمراضي

حياةَ المقربين لي

واختصرتْ أيامهم

أما أنا فلم أكن قطْ

معزولاً عن حياة الآخرين.

فقلقهم ولهفتهم

كانت تخصّني أيضاً.

كانت الآلام الغريبة

تطعنُ قلبي بشكلٍ ملحوظْ.

ولكنْ ما أن يذبلَ غصنٌ

حتى تنمو أغصانْ

* * *

إلى المترجمين

شكراً أيها الطيّارون الأعزاء

لأنني بفضلكم

رأيت العالم

رأيت بحاره وأرضه وأنا في السماء

* * *

إلى باريس وروما وطوكيو

على أجنحتكم أخذتموني

مع أن بيتي – صخرةٌ بعيدةٌ

وأنا داغستانيّ الأصل

* * *

فلولاكم

كنت أعيش الآن في الوادي

أحلم بطريق إلى السماء

علني أنظر لمرةٍ واحدةٍ من فوق الغيوم.

* * *

لكن أكثر مما أنا ممتنٌ للطيارين

أنا ممتنٌ للمترجمين

شكراً لكم يا شعراء الأرض

فبفضل كرمكم

عرفتِ المناطقُ البعيدةُ

أغنيتي الجبليّة

* * *

شكراً لأنكم

نقلتم لغات أشعاري

إلى لغات أشعارِكمْ

سمائِكم، سهولِكم، غاباتِكم، بحارِكم

* * *

محكمةٌ عالمية

تنعقدُ على كوكبنا محكمةٌ عالمية

يجتمعُ مجلسٌ عظيم.

دُعيتُ شاهداً إلى هذه المحكمة.

«قل لنا الحقيقةَ أيها الشاعر

من المذنبُ في ما يصيبُ الناس من آلام؟

من المسؤولُ عن مصائبهم وفقرهم؟

تحدث وأثبت، وصبّ لنا

على هذه الأحداث المظلمة نوراً».

* * *

محكمةٌ عالميةٌ مجتمعة.

والبشريةُ تدعو الشاعرَ لحضورها.

هنا تجمّع مجرمو القرن.

ليسمعوا قرارَ المحكمةِ بحقهم.

«ساعدنا أيها الشاعر لكشف أسرار الأحداث

فالعدالةُ - مهمّة المحكمة.

حدثنا، ماذا رأيت؟

وماذا خبأتَ حتى الآن تحت لسانك؟»

* * *

المحكمةُ تجري والسؤالُ يوجههُ لي،

ضميرُ الزمن ضميرُ القرن ضميرُ الأرض.

وأنا أحسُّ بمسؤوليتي أمامهم.

* * *

«هل معلومٌ لكَ أيها الشاعر

كيف يعاقبُ القانونُ بحزمٍ

شاهدَ الزورِ ومن يعطي معلومةً كاذبةً

ليخفي آثارَ الجريمة؟»

* * *

المحكمةُ تجري وأنا أقسمُ،

أن أقولَ الحقيقة، وها أنذا أقول:

«معلومٌ لي أن الإعدامَ

- وليس إلاهُ عقابٌ -

يستحقهُ الشاعرُ

إن شهدَ زوراً أو باعَ روحهُ

أو كذبَ دون ضميرٍ

أو تلاعبَ متلوياً كالأفعى».

* * *

المحكمةُ تجري وأنا جاهزٌ للجواب

أقول لهذا القاضي القاسي، الذي لا يعرفُ المحاباة!

«أقسم برأسي أن هذه الأرض

لن ينقذها إلاّ الضميرُ والحقيقة.

وأمام هذه الحقيقةِ النظيفة

أنا جاهزٌ لأقدم حياتي.

إن الضمير فقط هو إلهي ورسولي»

المحكمةُ تجري... المحكمةُ العادلة تجري.

* * *

لقد رأيت كلّ شيء

لقد جبت أنحاء العالم.

رأيت لوحاتٍ، سفناً ودور عبادة.

وقيل لي حينذاك

ليس هناك ما لا يستطيع الإنسان فعله.

* * *

جبت العالم ثانيةً رأيت النار تأكل كلّ شيء

اللوحات والسفن ودور العبادة

وقيل لي أيضاً

_ ليس هناك ما لا يستطيع الإنسان فعله.

* * *

مع سيّدةٍ على انفراد

اعذروني يا أصدقائي، لن آتي إليكم

وأرجوكم عدم الاتصال بي

فأنا سأقضي هذا المساء

مع سيدةٍ على انفراد

* * *

سنكون وحيدين، أنا وهي فقط

ستقف عقارب الساعة عن الدوران

ستغمر الموسيقى هدوء الجو

وستعمّه السرية

* * *

مزاجي كما الغجر الرحّل

أيتها الأشغال والأعمال، ابتعدي عني

سأقضي مسائي

مع سيدة على انفراد

* * *

ليكن خلف الشبابيك غاباتٌ وقطارات

وليدر ثانيةً رأسي

ولتشعَ كما النجوم في السماء الحالكة

كلماتنا البسيطة الدنيوية

* * *

سأمزق بطاقة الطائرة

وأخيّب أمل المجتمعين غداً

سأقضي ليلتي كاملةً

مع سيدةٍ على انفراد

* * *

لماذا يا نفسي

لماذا يا نفسي وأنت تتألمين مشفقةً على الآخرين
تتسين نفسك؟
- إن لم أشفق أنا عليهم فمن سيفعل ذلك؟
وما الذي برأيك سيحصل لهذا العالم عند ذاك؟

- لماذا، طوال هذا القرن، أيتها الكلمة التي أقولها
تنقذين الآخرين وتتركينني؟
- إنس نفسك واعضد غيرك
هذه وصيّة أيّامنا الحالية

ليس الحزن جديداً على نفسي
فهي تبعد الفرح العابر جانباً
ومع أنّ نفسي جاهزة لكلّ شيء
لكنني أرجو أن يتأخّر الموت
كي لا أدع الكلمة يتيمةً بعدي
ولا أدع من أحبّهم بلا حب

* * *

صـلاة

حين تصعد إلى القمم الزرقاء

حين تلمس قبة السماء باليد

حين تسمع كيف يهدر النهر في المضيق

كم من القرون مرت وهو يغني الأغنية نفسها

حين ترى الطائر يدور في الفضاء

وفي الشعاب الجبلية المتعرجة تتسلق القطعان

ستصلي للأرض العزيزة

مع أنّك لم تصلّ مرة في الحياة

* * *

حين ترى خلف الأفق البحري المليء بالسفن

كيف تبهت كرة الشمس

كأن المساء يضع فتيلا كالحا في مصباح عظيم

حين ترى الشمس تغرق في البحر

وتشق الماء إلى نصفين

ستنحني مصليا

مع أنك لم تصلّ مرة في الحياة

* * *

سترى كيف يجلس الشيوخ

يفركون شعرهم الأشيب

كيف ترضع امرأة طفلها

وللمرة المئة سيهزّك كل شيء

وكل ما في الأرض والسماء الزرقاء

تريد إدراكه

وحينئذ

ستصمت وتتفجر حَنجَرتك بالصلاة

مع أنك لم تسمع صلاة مرة واحدة في الحياةٍ

* * *

اجتمـاع

اجتماع! ضجيجهم وهدوؤهم.
كلمات، كلمات، معروفةٌ مسبقاً
يبدو لي أحياناً أن كلّ البلاد
موزّعة على اجتماعاتٍ مختلفة

تقلع الطائرة، ينفث القطار بخاره
يسرع الموظفون إلى مختلف اللقاءات
وهناك تمتلئ تقاريرهم بالحديث عن الحصادِ
وعن تنفيذ خطط البناء.

يجلس الجراح أسبوعاً كاملاً
وفي مكانٍ ما، غرف العمليات فارغةٌ
يحشرُ البناءُ أنفهُ أسبوعاً بين الأوراق
وهناك آلافُ الجدران غيرُ المبنيّة

يجتمع الرعاةُ أسبوعاً كاملاً

تاركين القطيع بين أنياب الذّئاب

تتوقف الجرائد عن طباعة الشعر

لتطبع مقررات الاجتماعات

حدثت فاجعةٌ يحترق بيتٌ في القرية

جدائلُ اللهبِ والدخان تتصاعد نحو السماء

وضابط الإطفاء في دخان الاجتماعات

يقرع صدره مقنعاً الحضور، ويسكب ماء الكلمات

في مكاتب المؤسسات، ومنذ الصباح

يجلس المراجعون مع طلباتهم

والمسؤولون مشغولون طيلة النهار

ونوابهم يكتبون لهم التقارير

عد إلى بيتك يا صديقي الكولخوزيّ

ولا تتوقع الاهتمام بك

فالجميع مشغولون ولا يستطيعون الاهتمام بك

-٥٤-

إنهم يحضرّون التقارير عن الاهتمام بالناس

اجتماع! آهٍ لهذه الأفواه المتعبة
آهٍ لتشدّق الخطباء الأشداء
وكلماتهم التي لا تساوي ثلماً في حقل
لا تساوي ندبةً في كفٍّ متشققة

أرسِلوني إلى الحرب، أقدم رأسي فديةً
أرسِلوني لأقطع أعمدة الأشجار الثخينة
أمُروني بالغناء وأنا سأقول
مالا تسمعون قط من على المنابر

أريد أن أعمل، أعيش، أكتب
أخدم الناس حتى آخر نفسٍ
ولكن لم أستطع إنهاء قصيدتي، ثانيةً
أتوا لدعوتي إلى الاجتماع.

* * *

حفيدتي الصغيرة شاهري

لماذا تبكين يا زغلولتي؟

ما الذي حصل؟ هل حلمتِ بمكروه؟

إن لديكِ أماً وأباً

وعلى سريركِ ينحني الأهل.

* * *

عشت عمري يتيماً

والحزن لا يُكبت ولا يُخبأ

كان من المفروض أن أبكي أنا

أما أنت فلمَ هذا البكاء الحارق ؟

* * *

لم يلسعكِ أحدٌ بحسده

ولم يمزقكِ كذبٌ أو خيانة

وأحلى من أغاني والدتكِ المفعمة بالحب

لم يُسمع غناءٌ في العالم.

* * *

أعرف أنا كيف يخون الأصدقاءُ

وكم من المرات واجهني كره الأعداء.

لم تبكين؟ أنا من يجب أن يبكي.

لقد مزقت الأحزانُ صدري.

* * *

أنت لم تعرفي الحروب والنيران

التي تندفع لإحراق كل شيء.

كم هي هادئةٌ في وضوح النهار المسالم.

تلك السماء فوق رأسكْ.

* * *

لقد أضعتُ إخوتي في الحرب.

وآلام فقدهم لا تخمدْ قط.

لماذا تبكين؟.. أنا من يجب أن يبكي

لقد واجهتني الحياة بأقسى ما تستطيع.

* * *

وهذا ما أجابتني به حفيدتي

ولقد فهمت من لعثمتها:

يا جدي يا جدي كل هذا سوف يواجهني مستقبلاً

وها أنت ذا رغم كلّ ما عانيت لا تزال على قيد الحياة

* * *

في هذا القرن الرهيب. تغمر المآسي كلّ العالم.

كيف ستعبّر عن اضطرابك وانزعاجك؟

لذا... أنا أبكي يا جدي...

أنا لا أفهم. لماذا لا تبكي أنت؟.

* * *

ماذا أستطيع أن أفعل

ماذا أستطيع أن أفعل

مع هذا الحبّ؟

هذا الشغف ألذي إن ضاع مات كلّ شيء

هذا الحب الذي تخيفه العوائق والنميمة

كما يخيف التقاعد بعض الناس

* * *

هذا الحب الذي لا يوصف بما مُنح من ميداليات

لا يعرف العُطل وأيام الراحة

ولا يعرف شعلة القدر

لا يتركني ولو ساعةً واحدة

* * *

أنا أغبط من يجلس وحيداً

بعد تقاعده عن عمله. وهاهو ذا يكتب بمذكراته:

عشت حياتي... وما لديّ ؟..

ولادةٌ .. وموتٌ .. وبينهما حبٌّ فقط

* * *

النظرات غير قابلةٍ للقياس

والحواسيب لا تقوى على الحب

أما أنا وصديقيٍ الشاعر محمود في جبالنا

فسنرفعً علم الحب عالياً

* * *

يعبـر المـارة

يعبر المارة أمامكِ بهدوء

كأن جمالكِ لا يلفت نظرهم

لعل بعضهم أصيب بالعمى رغم أن لهم عيون

آهٍ لو استطعت أن أعيرهم عينيّ .

* * *

مشيتُ البارحة وحيداً

في الشارع

وقلت في نفسي حان وقتُ الرحيل

وإن رحلتُ – فإلى الأبد

ولن أعودَ إلى هنا ثانية

أكدتُ لك أنك لستِ محقةً أبداً

عنفتكِ على كل أقوالِك

وكررتُ أنني سأجدُ أخرى غيرك

يا لك من مشاكسةٍ ويا لسوء حظي معك

وها أنا ذا أبطئ خطوةً وأسرعُ أخرى

وإذا بي أمام بابِك

* * *

عندما ستقترب حياتي يا حبيبتي

عندما ستقترب حياتي يا حبيبتي

من حدودها النهائية

سأقول لك في ساعتي الأخيرة

ثلاث كلمات فقط

* * *

ثلاث كلمات... آه لو أجد القوه

لأنتزعها من قلبي وأقولها لك

«شكراً على كل شيء يا حبيبتي»

ستكون هذه كلمتي الأولى

* * *

وهل سأستطيع قول الكلمة الثانية؟

إن استطعت لفظها

سأغلق عينيّ تعباً وأقول

«اعذريني على كل شيء يا حبيبتي»

* * *

وسأهمس الكلمة الثالثة

بعد أن أنتصر على مصيري

«فلتغمرك الصحة الجيدة يا حبيبتي

أتمناها لك دوماَ

* * *

وإن حالفني الحظ الطيب

أن أقول شيئاً آخر

فأنا وبعناد ومن كل قلبي

سأكرر كلماتي الثلاث

* * *

وإن بقي رمقٌ بسيط

سأعيدها مرة أخرى وأقول

«شكراً يا حبيبتي على كل شيء

أتمنى لك الصحة واعذريني»

* * *

ملكٌ من دون بيت

إلى الممثل الداغستاني الذي يلعب دور الملك أو القيصر

على خشبة المسرح، يملك قصراً ملكيّاً

بل وآلاف القصور وليس واحداً فقط

إنه – إمبراطورٌ، قيصرٌ، أمير بخارى.

ملكٌ وشاه، مالكٌ للكون

* * *

كلّ الخدم يدورون حوله

والجميع يقع من السماء على قدميه

والوزراء يقدمون له الطاعة منحنين

وكلهم له خدمٌ أوفياء

* * *

لكن ما أن ينتهي العرض، ويتفرق الحضور

حتى نرى الملك كائناً أرضياً بسيطاً

نراه كل يوم أمام دار المحافظة.

نرى قامته الملكية تدور هناك

* * *

أرجوك أيها الرفيق المسؤول،

لا تترك الملك دون بيت

حتى ولو كان زاوية لسريري

أعطني زاويةً تتسع لي ولسريرٍ وكرسيٍ فقط.

* * *

يتسلم الجواب ليجد فيه

كلماتٍ تقول «البناء قيد التنفيذ

لا بيوت للممثلين

أما الملوك فلا حق لهم بالسكن.

* * *

المطرُ يفعلُ ما يشاءِ

المطرُ يفعلُ ما يشاءْ

لا تحاولْ أن تمسّهْ

الريحُ تعصفُ حيثما تريدْ

كحصانٍ جامحٍ دون لجامْ

* * *

أما أنت أيها الإنسان

فلست ريحاً

ولست مطراً

وكلماتكَ يجب أن تنبعَ من القلبْ

موجّهةً من العقلْ

* * *

أســماؤنا

أعطيت لنا أسماءُ منذ ولادتنا

فلنحافظ على نظافتها.

لقد بحثوا عن اسمكِ، بين النجوم

وعن اسمي على طرقات الحروب.

مرت الأيام، إلى أين؟ إلى المجهول.

طارت سريعاً وما يدل على ذلك،

ها قد دعيتِ، خطيبةً

وأنا شاباً شهماً.

همست لك بِأبيات الحب

واعتبرني الناس شاعراً

إن كنت شاعراً - فأنت الأغنية

تلك الأغنية التي تبقى بعد رحيل الشاعر.

ومعنا

طارت السنون قاضمةً حياتنا

يا لسعادتي العظيمة ففي ربيعٍ ما

ناديتني يا زوجي الحبيب.

* * *

حـديـث

- قل لي بعد أن صنفت أيامك وأعوامك
أي أيامك كان الأفضل؟
- كانت أسعد أيامي
عندما أحبتني حبيبتي
- ألم يصادفك يومٌ
بكيت طواله دون أن تخفي تعاستك؟
- إنه عندما نسيتني حبيبتي
إنه أكثر أيامي سواداً
- لعل حياتك لم تخل
من يومٍ لم تحب به
فالحياة دون حبٍّ
أبسط وأهدأ
- لعلها أبسط وأهدأ
إلاّ أنني لا أذكر يوماً كهذا
في حياتي.

* * *

ولا عن أي شيءٍ آخر

لا أريد سماع كلمة، عن أي شيءٍ آخر.

دعنا نتحدّث عن الجميلات فحسبٍ.

كلّ حديثٍ آخر.. ضجرٌ قاتل.

كلّ حديثٍ آخر.. ضباب.

كلّ حديثٍ عن غير الحبِ.. سريرٌ فارغ.

لا تهزُّ فيه طفلاً. قط.

والخمر دون حبٍّ - أقسم لكم بالحبّ

هو ماءٌ بسيطٌ معكر.

لا أريد سماع غناءٍ عن شيءٍ آخر.

غنّوا عن الحب فقط ولو لمئتيّ عام

حتى الحكايا، تصبح بلا معنىً

إن خلت من كلماتٍ عنه

عن الحب تتهامس الطيور فوق رؤوسنا

وحبها تدفئه أشعة الشمس.

حتى الغزلان في الغابات سراً.

تتغنى بالحب فقط.

فإلى عشق الأرض تحن السفن

وهي تتمايل بين الأمواج.

والطائرات في قبة السماء

تحرك أجنحتها معبرةً عن الحب.

فعنه وعنه فقط، سأغني كلّ عمري

وبهذه الأغاني سأنهي حياتي.

لكن - وبعد موتي.

إن صادفتني فتاةٌ جميلةٌ، سأغني.

* * *

خلافاتنا البسيطة

خلافاتنا البسيطة
ليست جدّية
يستطيع أيٌّ كان أن يثبت لكِ ذلك
إذ إننا حتى لا نعرف
كيف نقطبُ جبيننا
وننسى بعد ساعةٍ
أسباب خلافنا
ولا نستطيع إخفاء
تحية عيوننا المبتسمة
يبدو أن هذا الحب العظيم
الذي يخاف أن يذرف دمعةً
يحسب كلّ نسمةٍ بسيطةٍ
عاصفةً هوجاء
أم أننا أحياناً
نودّ دون عناءٍ شديد
أن نهدي لقلبينا المتيمين
لحظة تنفسٍ مريح

* * *

أعطني يدك

إذا اجتاحتك السعادة يوماً
فعشها دون أن تخبئها
أعطني يدك.. أعطني يدك..
أعطني يدك.. يا صديقي.

إن داهمك الحزن فجأةً
تقاسمه معي وسترتاح حالاً
أعطني يدك.. أعطني يدك..
أعطني يدك.. يا صديقي.

إن عشقت دون حدود
سأكون سعيداً مثلكِ .
أعطني يدك.. أعطَني يدك..
أعطني يدك.. يا صديقي.

إن اتفقت معها
ستكون سعادتي ضعف سعادتك.

أعطني يدك.. أعطني يدك..
أعطني يدك.. يا صديقي.

إن لاقتك المصائب
سأقاسمك إياها.
أعطني يدك.. أعطني يدك..
أعطني يدك.. يا صديقي.

إن خرجت في الزوبعة
نادني بقوة كي أسمعك.
أعطني يدك.. أعطني يدك..
أعطني يدك.. يا صديقي.

إن حملت ضغينةً في نفسك
لا تعرضها عليا.
أبقها كلها لك.
وأبعد يدك عني.

* * *

اذهب إلى الطبيب....

حين لا ترى كيف يتفتح الغصن

وفجأةً يشتعل اخضراراً

وكيف تنظر عبر النافذة

جارةٌ بديعةٌ مبتسمةً

حين لا تسمع نداء الربيع

ينشر التحيات من حولك

لك نصيحتي - هلم مسرعاً

إلى الطبيب يا صديقي

اعلم، أنك إن لم تستجب مسرعاً

لنداء الشفاه المعسّلة

أو لم تعد تجيد الدهشة

فإنك – مريضٌ أو غبي

إن لم تكن فرحاً ولا حزيناً

تراقب كل شيءٍ عن بعد

أصم لا تحس رنين السندان

أصم حتى عن رنين الينابيع

حين لا يسعدك قدوم الأصدقاء

ونزوات قلبك شحيحةٌ

حين تنسى حرية الأنهار البرية

فإنك – مريضٌ أو غبي

حين يغمرك نوم الشتاء

أكان الجو حاراً أم عصفت الثلوج

أو لا تهرع لسباق الخيل

حيث ركض الخيول بديع

عندما لا يعجبك أن الحقول

حرثت في أوانها تحت رعود الربيع

حين لا تقدر قيمة العقل الراجح

وتدخل الأغبياء إلى بيتك

حين لا تسعدك الأخبار

أن مرضاً مستعصياً قد قُهر

وأنه لم يعد هناك حربٌ ولا ثأر

هلم مسرعاً إلى الطبيب يا صديقي

* * *

حين لا يوجد قربك صديقٌ مخلصٌ

- أين اختفت تلك الساقية الشابّة

الهادرة بطنين عبر المرج الجبلي ؟

- في السهول ضاعت الساقية الشابّة

حيث لم تجد إلى جانبها صديقاً مخلصاً

* * *

- وأين ذلك الغزال المزهو السعيد

الذي دوّت أحاديث المناطق عن قوّته؟

- سقط في الشرك. ضاع وانتهى

إذ لم يكن قربه صديقٌ مخلصٌ

* * *

- ومن كسّر أغصان الحور

التي كانت تحف بعناد؟

- كسّرتها العاصفة وحطّمتها الزوبعة

إذ لم يكن قربها صديقٌ مخلصٌ

* * *

- ما الذي أعادك من طريقك متجهّماً

وما الأفكار التي تقلقك أيها الصديق ؟

- تألّمت مراراً في طريقي هذا

إذ لم أجد إلى جانبي صديقاً مخلصاً

* * *

لمَ لا تشرب؟

يجيب بنظرةٍ

لا أرى قربي صديقاً مخلصاً

ولمِ اكتأبت أغنيتك كزوبعة؟

لأنني لا أرى صديقاً مخلصاً

* * *

وبأية أعجوبةٍ لم يتحطّم مصيري

مع أنني عرفت الكثير من الماسي والمصائب؟

لأن سعادتي تكمن في أني دائماً

أجد قربي صديقاً مخلصاً

* * *

ثلاثةُ أنخاب جبلية...

لن نتفلسف كثيراً ونحن نملأ أكوابنا.

وليصدح صوتنا بالنخب الأول

«فليعم الخير كل الشرفاء الطيبين

وعلى قدر سفاهتهم فليخسأ السفهاء»

* * *

ولنملأها ثانيةً ولنذكر القول المأثور

الذي يليق بالأنهار الهادرة

«لتكن طفولتنا قصيرةً كلحظةٍ

وليطل شبابنا لقرنٍ كامل»

* * *

وللمرة الثالثة، لنقرع كؤوسنا معاً

«يا صديق الشرف اشرب كأسك حتى الثما له

فلتمر الأحزان متحاشيةً إيانا

أما أولادنا فسيتحملون أيامهم - آمين»

* * *

وهل هذا رجل؟

من تراه جاهزاً للقهقهة

دون تفكيرٍ وبلا مبالاة

هل هذا رجل؟

من تهيّب السيوف

ولم يذق يوم حزنٍ

هل هذا رجل؟

من تراه مقطباً حاجبيه بخبثٍ

وهو يسمع نخباً

هل هذا رجل؟

من لم يعشق حتى الموت

من لم يقبل امرأةً يوماً

هل هذا رجل؟

من ينحني لكلِّ امرأةٍ قائلاً: يا حمامتي
ويلهث خلف كل تنورهٍ
هل هذا رجل؟

من يدّعي المساعدة
وهو جاهزٌ للخيانة
هل هذا رجل؟

من يعبر الباب نحو المائدة
ولا يقوى على شرب كأسه
هل هذا رجل؟

من تراه بين الناس
يشرب الكؤوس دون توقف
هل هذا رجل؟

من يضيع في دروب الأرض قرناً
ناسياً الطريق إلى بيت أبيه
هل هذا رجل؟

من يملؤه بعنادٍ مبرمجٍ
حقدُ محاكمتنا دون رحمة
هل هذا رجل؟

من يعطي كلمة شرفٍ فولاذيّةٍ
ويتراجع عنها حالاً
هل هذا رجل؟

* * *

تخفق العصافير بجوانحها

تخفق العصافير بجوانحها

ثلاث مراتٍ

لتشقّ الريح المواجهة المجنونة

ونحنُ نطيرُ، وشهيقُنا يملأُ صدورَنا

ونديرُ سيقاننا مع الصباح ثلاثاً.

يبدو أن مصائرنا متشابهةٌ

وكرفوفِ العصافيرِ خفيفةِ الجوانح

ولدنا في الساعةِ المقدّرة لنا

ونموتُ بعيدا عن أعشاشنا.

في الأفقِ نختفي بعفويّةٍ

عند الغروبِ أو صباحاً باكراً

في السماواتِ أو في أصقاعِ الأرض

أو بين أمواجِ المحيطاتِ المتلاطمة.

تتقاطع ثاقبةً السماواتِ الزرقاء

أغانينا التي لم نتمم غنائها..

نولد كلنا على نفس الأرض،

ونموت في مئات الأماكن المختلفة.

* * *

لا أريد حصاناً

لا أريد حصاناً
رشيقاً أسود
إن لم أسعد
بوجود إنسانٍ قربي.

وأستغني عن النار
وليسفح نبيذي عل الأرض
إن لم أجد في الجبال
إنساناً جانبي

وستبقى الكلمة – صوتاً فارغاً
لا رنين لها، وليست للغناء
إن لم يكن هناك
إنسانٌ معي

حتى أنعم النساء
ستصبح حجراً
إن لمِ تبهر بنعومتها
إنساناً ما

وسيجف قلبي في صدري
كبقايا الماء في البئر
إن لمِ أصادف في طريقي
إنساناً ما

بنى روبنسون بيتا
فأنقذ وحدته
أما أنا فسأموت فيه
إن لم أجد إنساناً جانبي

لن تغفر خطاياي
وريشتي ستكبو كالحصان
إن لم تجد أشعاري
من يقرؤها.

* * *

احفظوا الأصدقاء

اعرف يا صديقي ثمن العداوة والصداقة
ولا تتعجل الأحكام
فالغضب من الصديق يمكن أن يكون فجائياً
لا تتسرع بصبٍّ جامّ غضبك عليه

* * *

قد يكون صديقك تسرّع
وأهانك دون عمد
أخطأ الصديق ثم اعتذر
لا تذكره بخطيئته هذه

* * *

أيها الناس نحن نشيخ ونهرم
ومع مرور الأيام والأعوام
من السهل علينا إضاعة الأصدقاء
أما الحصول عليهم فأصعب بكثير

* * *

إن جرح حصانك المخلص قدمه
إن تعثّر فجأة ثم تعثّر من جديد

لا تلمه بل وجّه اللوم للطريق
ولا تتسرع بالاستغناء عنه

* * *

أيها الناس أرجوكم، بالله عليكم
لا تخجلوا من طيبتكم
فالأصدقاء على هذه الأرض قليلون
احذروا إضاعتهم

* * *

كانت لي قوانيني المختلفة
واعتبرت الطيبة ضعفاً
كم أضعت في حياتي أصدقاءً!
وكم من الأصدقاء استغنى عني!

* * *

بعدها جرى لي ما جرى
وفي طريقي الشديدة الانحدار
كم ندمت! وكم كنت بحاجة!
لأولئك الأصدقاء الذين أضعتهم

* * *

والآن أنا متعطش لرؤيتكم جميعاً
يا من أحببتموني مرة
يا من لم أصفح عنكم مرةً
يا من لم تسامحوني مرة

* * *

رجــاء

طلباتي منكِ ليست كثيرة، يا زوجتي العزيزةً
أما هذا الرجاء، فنفذيه بالله عليكِ

أرجوكِ: قدّري أصدقاء الماضي
كلَّ من سبق وكنتُ عزيزاً عليهم
كلَّ من أحببتُ وقدّرت
منذ القدم وحتى الآن

أحبي الناس الذين مشيتُ معهم
منذ البدء دروبي الوعرة المتعرّجة.
لا همَ من أصبحَ أصدقائي اليوم
إنهم – بعضٌ من حياتي الماضية.

وإن بدت تصرفاتُهم غريبةً
لا تلقيِ لومكِ عليهم.
واغفري لهم هفواتَهم وأخطاءَهم البسيطة

كما اعتدت أن تغفري لي.

أسرعي لاستقبال الأصدقاءِ يا عزيزتي
افتحي لهم الباب ولا تنظري نحوهم شذراً
واعتبري أن شبابَ الماضي
قد قرع بابنا فجأةً.

لقد فرقنا الموتُ عن بعضِ الآخرين
كما وأبعدتِ الحياة البعضَ عنا
وبعضٌ آخر يتصل بكآبةٍ ليطلب حاجةً
ويختفي بعد أن تحلَّ مشكلته.

عاماً بعد عام يتناقص عددنا
آه يا زوجات أصدقاء الماضي
تحملوني بما أنكم مضطرون لذلك
إكراما لأزواجكم الأعزاء.

* * *

عن الصداقة

أنتَ سعيدٌ جداً لكونك ولسنواتٍ عديدةْ

تعيشُ بهدوءٍ دون صراعٍ مع العواصفْ

ولا أصدقاءَ لكَ وهذا يعني أنك أبداً

لا تتقاسمْ مع أحدٍ السعادةَ والشقاءْ

* * *

لكنك حتى ولو عشتَ مئة سنةْ

واشتعلَ رأسكَ ببياضِ الحكمة

سأقولُ لك بجرأةٍ أمام الناسْ

إنك لم تولدْ بعدْ

* * *

هيا يا صديقي

هيا يا صديقي
وكما في الأيام الغابرة
أعزف لنا على البندور[١]
تلك الأغنية القديمة.
دو لالاي دو لالاي[٢].

لقد صادفتُ الكثيرَ من الأحزان
ولم تكن حياتي جنّةً أبداً.
وها قد مضى كلُّ شيء
دو لالاي دو لالاي.

---

(١) البندور آلةٌ شعبيّة موسيقيّة.

(٢) مقطعُ يردد في الأغاني الشعبيّة.

كم ابتسم لي الحظ

وطالما غمرتني السعادة.

ولكن بريق هذا الكأس قد خبا.

دو لالاي دو لالاي.

كان عندي كلٌّ شيء، وما الذي بقي لي؟

فكر معي قدر ما تستطيع

لقد تبين لي أن الحقيقة تكمن في،

دو لالاي دو لالاي.

وكل ما بدا مستقراً

انهار فجأةً ولم يبق منه سوى

دو لالاي دو لالاي.

* * *

شكراً يا صديقي

شكراً، يا صديقي، على الكذب اللذيذ،
لقد أسعدني كثيراً.
لقد قلت لي في الماضي القريب،
أنني، كما في السابق حاذقٌ وعلى ما يرام.

كالماضي، شابٌ، لم يزرني شيب،
كالماضي، فرِحٌ، قويٌ، ومتين...
شكراً، لقد غمرتني السعادة
لكلماتك التي لا أعذب منها قط.

كما في السابق، حاذقٌ وعلى ما يرام...!
لكن ما ينغص عليّ هذا الإطراء
أنني لا أستطيع تقاسمه مع أحد، لكنني سراً أقول...
شكراً، يا صديقي، على الكذب اللذيذ.

* * *

يا صديقي القديم

يا صديقي القديم، أنا أؤمن،
أن هذا الثلج سيذوب يوماً
وستعود بشرفٍ
إلى وطنك العزيز.
أتسمع صوت إخوتك؟
لم يهرموا مع السنين،
وليس باستطاعتي
بعث من أفل.

ومع ذلك أنا أسمع،
كيف يصدح نداؤهم في قلبي:
عد دون بطء
إلى موقد الوالد...
ففي أناشيد الأم
يغنون عن ذلك،

وأنا أقول هذا مؤكداً
مئة مرةٍ كل يوم:

لا تعزف على الرق
لعابر سبيل نذل
ولا تقفز راقصاً
لعزف غريبٍ عنك.
ولتتذكرً دوماً: أن تعيش مفارقاً عائلتك
أمرٌ مستحيل،
وأعلى من جميع أمجادك
اتحاد الحب المقدس.

يتساقط الثلج... والآمال
تولد مع الشتاء مباشرةً
الآمال بأن الثلج سيذوب
وأن الربيع سيأتي...
لا تذهب بعيداً في الماضي
كي لا تضيع نهائياً -
فالدروب تنتهي
والأزمان تتغير.

* * *

أيتها الصبية الأفارية

أيتها الصبية الأفارية

يا نوري المحبوب

من أساء لك؟

أرى تيارات الدموع الحارقة

تتدفع من عينيك السوداوين العظيمتين

* * *

من أدعو لمبارزةٍ حتى الموت؟

أخبريني

من أحاكم في هذه الجبال العزيزة؟

لتسببه بدموعك الحارقة

* * *

لا تثأر من مسببي أحزاني

فقد قتلوا في الحرب

لقد دافعوا عن وطنهم

إنهم والدي وأخي

* * *

لا تحاكمهم أيها الأفاري

أنا أبكي لأنه

ليس أعز من الأب والأخ

وليس لي أحدٌ منهم على قيد الحياة

* * *

شكراً لك أيها الشعر

لأنك استوضحت الطريق

لأكثر البيوت بؤساً

وأعطيت الفقراء لغةً

مولودةً من الشعلة المقدّسة -

شكراً لك أيها الشعر

* * *

لأنّ الشباب في ساعات الحب

يتهامسون بشفاههم الحارّة

بقصائدك الخالدة

ويشربون من نبعك الخالد -

شكراً لك أيها الشعر

* * *

لِاستهزائك بأولئك الذين

يدهنون إلية الغنم بالسمن[١]

---

(١) يقصد الأغنياء المبذرين...

ولأنّ القصائد لم تزحف
أمام أحدٍ على بطونها –
شكراً لكَ أيها الشعر

* * *

لأجل الجمال والحب والشرف
لأجل من غنت لهم أوتارك
لأن للشاعر قاضياً وحيداً -
شعبه الحبيب –
شكراً لك أيها الشعر

* * *

لأنك لم تسمح بالسقوط
لمن تكسّرت عظامه
وهو يتسلّق الجبال الصخريّة
أو ينحدر عن الصخور العظيمة -
شكراً لك أيها الشعر

* * *

لستَ مذنباً أن العالم قد غاص
في الحقد القاسي والعداوة
لو كان باستطاعتك – لغمر الآن
الحب العالم بأجمعه
فشكراً لك أيها الشعر

* * *

لإلهين ..

في الهند السمراء، في نيبال الجبليّة
تتنوع مئات الأرباب والآلهة
يا للغرابة أين وقعنا؟ وهل يعقل هذا؟
إن عاداتنا مختلفة تماماً

أما أنا، فكنت ولم أزل
أعبد ربين لا رباً واحداً
طبيعتهما واضحةٌ حيناً ومبهمةٌ أحياناً
وأنا ضائع في هذه اللجة

الأول – إله الغناء
إله الشعر والموسيقى
والثاني – دون شكٍّ - إله الحُبّ..
ولن أقوى على شيء دونهما.

لن أقوى على التنفس أو الضحك والبكاء
لن أستطيع تقاسم آخر قطعة من الخبز مع أحد.
ولن أحافظ على نعومة الطفلً

في قلبي الرجولي القاسي.

لولاهما، لم يكن قطعاً
ممكنٌ قدومي إلى هذه الحياة.
حيث يسود الشر، والقهر
الذي تجمع خلال القرون.

نعم، إنه الحب - أغنيتي الأولى
الأغنية - والحب والشغف الأبديان
حتى القلب الميت ينبعث من جديد
إن أراد هذان الإلهان.

فليعتبرني أهل بلدي ملحداً
فلهذه المغنية الرائعة الجمال
سأقدم قلبي الذي يعبد إلهين
أسيراً دون أسفٍ أيها الأصدقاء.

في الهند السمراء، وفي نيبال الجبلية
مئة إله أُعطيت للإنسان
لن تلوموني بعد الآن كثيراً
إن قمتم بزيارةٍ لهذين البلدين.

* * *

وأنا أيضاً كنت خادم العبادة

وأنا أيضاً كنت خادم العبادة

بدّلت الصورَ في مكتبي، بشكلٍ دوريّ

أحدُ من كان في الصور سابقاً

علم الجميعَ الخضوع.

ألفَ شعراءُ دول عديدةٍ

عنه القصائدَ المحذلقة.

أما أنا فكان معبوديَ الدائم

بلدي داغستان.

ولم تتبدل قط

صورةٌ واحدةٌ في روحي.

تتصاعدُ فيها الخرافُ، متضافرةً كالغيوم.

ويلفُ الضبابُ سلاسلَ الجبال.

فيها مروجُ القمم الشامخة

واندفاعُ التيار الجامح

والوالدُ ممسكاً كتابَ الله

والوالدةُ قرب الموقد.

صورةٌ مكللةٌ بإطارٍ من الصخور

مصورٌ بها أنا أيضاً

شاباً أشيبَ الرأس

وقربي أنتِ يا زوجتي.

* * *

سأكون سعيداً

في تجوالي في هذا العمر
ماذا أطلب من الحياة؟
في الوجود ثلاثة كنوز

* * *

طلَّة نسائية أولاً
ناعمة وفاتنة
ولتكن أينما كنت
معي في كل لحظة

* * *

والكنز الثاني
نصائح خالدة من شيخ عجوز
ربما ستعينني
أن أميّز العتمة من النور

* * *

وأخيراً دفق شبابي
وماذا غير هذا أريد؟
دعوا لي ثلاثة كنوز
وسأكون سعيداً

* * *

كم من الشعراء الموهوبين

كم من الشعراء الموهوبين

نسيهم الزمن

لأن قصائدهم المغناة بإلهام

خلت من ذكر أوطانهم

* * *

وكم من المحاربين الجسورين

الذين نسيهم الزمن

لأن أرواحهم خلت

من آباء وأمهاتٍ شجعان

* * *

كم مرّ عليك أيتها العيون

كم مرّ عليكِ أيتها العيون
من اللحظاتَ الرائعة
أخبريني. ما أجمل الأشياء؟
أجمل الأشياء - خطوة إلى الأمام - بكل تأكيد.
* * *

كم من الأصوات أيتها الآذان
تلقفت مراراً ومراراً
وما هو أغلى ما في الحياة؟
إنه - كلمة الحق - بالطبع
* * *

أيتها الروح
المتعطّشة للروائع والآمال
ما أروع ما في الحياة؟
إنه - طفل في سريره -
* * *

أيها القلب كم عرفت في حياتك
من حبّ عظيم
ما أعظم ما عرفت؟
إنه - وطني - النور والبدء.
* * *

أتتـني الأشعار

أتتني الأشعارُ البارحة

في سكونِ منتصف الليل

«قم - قالت لي في الهدوء

نحن ننتظرُك،

*   *   *

لن أطردكِ من بيتي أيتها الأشعار

لكن زوجتي نائمة

قلت للأشعار هامساً

انتظري حتى الصباحْ،

*   *   *

استيقظتُ في ساعة متأخرة

أين الضيوف؟.... ناديتهم

أحسبُني لم أركم في منامي

بل سمعتُكم في يقظتي

* * *

أيتها الأشعار أيتها الأشعار لم يجبْ أحد

ما هذه المأساة

لعلها استاءت مني

لأنني لم أستيقظ حينذاك

* * *

عندما يتركك الأصدقاء

عندما يتركك الأصدقاء

يصبح الغرباء أقرب

صباحاً كنت وأصدقائي المقرّ بين

ومساءً صار قربي آخرون

* * *

يا من ترككم أصدقاؤكم. من أين جئتم نحوي؟

أنا الذي تركه أصدقاؤه

عِشنا طائشين إلى أن

اصطدمت رؤوسنا بأسطح المنازل

* * *

وبرغم سقوطنا مراراً في المصائد

التي لا نعرف من نصبها

لن أعلن عن قرابة الدم

لأنها لم تكن عربةً منيعةً

* * *

فالصادق الوحيد هو القلب الذي لا يعتريه الشك

والذي يثق حالاً بكلّ كلمة

مع أنه ينزف دماً من جروحه

التي وهبها له القدر مرةً ومراراً

* * *

في بعض الليالي الخريفية

في بعض الليالي الخريفية

وقرب الموقد

تجلس أحلامي وذكرياتي التي مضت

يقطر المطر ويفرقع الحطب في الموقد

وفوق النار تنحني مرحلتان من عمري.

* * *

تجلس أيام طفولتي التي انقضت

وشبابي المبتعد مع ربيعه

آمالي وذكرياتي

كولدٍ مع أبيه يتهامسان.

* * *

ها قد أشعلنا النار، إنها تحترق بحماسة

كي تملأ الجميع دفئاً ونوراً

وقرب النار تجلسان متلاصقتين

تعاسة الحاضر والسعادة التي ابتعدت

* * *

عزيزتان على قلبي دون مواربة

مرحلتا عمري الجالستان قرب النار

ليس لي الحق بأن ألوم مصيري على شيءٍ قط

بل هو صاحب الحق بلومي على أشياء كثيرة.

* * *

التصفيق

لقد صفقنا.
حتى تألمت أكفنا.
حدث في السنوات التي مضت
أن احمرت أكفنا كخدودٍ خجلا
ضربناها بشدةٍ ورغبة.

كم ضربنا أكفنا بنشوةٍ!
حماساً لكلمات المديح أو التسفيه
ولو كانت أكفنا أجنحةً
فما أنا إلاّ غبيٌّ لوح بجناحيه.

«فليعش»
صرخ أحد المحاضرين عن المنبر ممجداً
«فليسقط» -
نادى غاضباً

واشتعلت الأكف مصفقةً لتملأ القاعة
حباً لمن مدحه المحاضر
وحقداً على من لعنه.
قفزنا ناهضين لنصفق وقوفاً
ضجت قبب القاعات ولم تزل
أحس كلُّ جبانٍ انه بطلٌ
وتخيل أن المعارك قد اندلعت

ظننت أنني حققت كلٌ هذا المجد
وأنني أنا الذي أضرمت كلٌ هذه النار
حين كنت أضرب كفي اليسرى على اليمنى
ثم أضرب اليمنى على اليسرى

صفقت وضربت الأرض بقدميّ
مرغماً أو بكامل إرادتي لكن حتى الإشباع
لعلني أضعت كلّ شبابي في التصفيق
أو الجزء الأكبر منه.

تعرضت في حياتي لإعادة تصنيعٍ

ولاقتني مختلف أنواع الخير والشر
صفقت حتى طارت عقارب ساعتي
ومضى الزمن.

لقد كبرت، ولست أخفي سراً
إنني أصفق، ولكن ليس كالسابق
أصفق نادراً لبطلٍ ما
أو لراقصٍ مبدعٍ في حفلِ عرس.

أما الأهازيج التي أسمعها في هذا الكون
فأقسم أنها تكفيني
فأنا أسمع المطر يقرع الأسطح
والريح تصفق لقدوم الربيع.

أسمع، في مكانٍ ما تتراقص الأنهار
أسمع الأوراق تصفق على الأشجار
سعيدةً لأنها ولدت على هذا الكون
أسمع الحشائش تصفق في الوديان
وكذا أشجار السنديان الأخضر

على منحدرات الجبال

لا تصفق بشكلٍ أعمى، أو لمجد أحدٍ ما

ولا لأن جارها يصفق.

* * *

سينهمك العارفون

سينهمك العارفون

الذين سيهتمون بكتابة تاريخي

يوما بعد يوم بتقسيم حياتي

إلى فترات ومراحل وأجزاء

* * *

إن حياتي من البدء حتى النهاية

مقسومة إلى قسمين

قسم قبلك يا حبيبتي

ومعك قسم آخر

* * *

كل أشعاري وقصائدي

كل ما كتبته في عمري القصير

سيقسمه العارفون

وسيوزعونه على الرفوف المختلفة

* * *

أما أنا فسأقسم إلى قسمين

كل ميراثي المتواضع

أبيات شعر عنك يا حبيبتي

والقسم ألآخر – كل شيء آخر

* * *

تقريرٌ إلى المؤتمر

غداً سيكون نهاري صعباً

وسألقي تقريراً في المؤتمر

كم أود أن أستدعي الطبيب إلى المنزل

وآخذ تقريراً طبياً

ببساطة، أحياناً لا أجد مخرجاً آخر

من يستطيع أن ينصحني؟

هل أشتري بطاقة طائرةٍ؟

هل أختبئ في قريتي؟

يقال إن هناك طريقٌ آخر

حيث يكتب للمؤتمر

تقريري - أحدٌ غيري

وهذه طريقةٌ متبعةٌ

لكنني لا أقوى على هذه الخطيئة

ولن أقرأ ما كتبه الآخرون مدعياً أنه كتابتي

أنا أقرأ ما أكتب فقط

وأتمنى أن يسمعني الناس..

أرجوكِ يا عزيزتي

أنقذيني بنصيحة ملائمة

سأتصرف كما تأمرينني

ولن يساعدني أحدٌ سواكِ

استمعي إلى رجائي

وقولي ما يجب أن أقرأ

فأبياتي التي كتبتها لكِ

تعوض عن تقريرٍ من مئة صفحة

* * *

كبيرنا

المائدة جاهزة

ويتجمع الضيوف

ماذا ننتظر؟

ها قد تجمعنا

لماذا لا نجلس إلى المائدة؟

لماذا؟

- ننتظر كبيرنا.

كلّ الاحترام له.

كنا في الجبال

نعتبر الأكبر بيننا

من عبر أنهاراً أكثر

من مشي طرقاً أطول

إنه كان كبيرنا

وله الاحترام الدائم

أما الآن فقد أصبحوا
يعتبرون الكبير
ذا مواصفاتٍ مختلفة
فالاحترام حسب الرتبة
بكل بساطة
لكن أين الجواب؟
«ننتظر كبيرنا»
لا نعرف لماذا لم يصل..

لكن من كان الأكبر؟
في ماضي الزمن
لقد كان المقياس موحداً
في ذلك الزمن:
من رأى أكثر نجوماً!
أما الآن فالأكبر
من يشغل المنصب الأعلى.

سألت صديقاً

مساعدةً

فأجابني حالاً

«سأسأل كبيرنا»

ليس ذاك

الأكبر عمراً!

(بل ذاك الذي

لا يستحق قرشاً)

كانت ستحل القضية

في الصباح

إلاّ أنها تبخرت

وذهبت مع الريح

فأعلى من الكبير

كبيرٌ آخر

وأعلى من الآخر

آخر أيضاً

لن أطلب نصحاً

من صديقي هذا

كان كبيرنا دوماً

من زرع الأفكار العبقرية

من امتاز بشجاعته

وأبدع في عمله

لا بعلاقاته أو رتبته

ولا بمنشئه العائلي

أما الآن

فالأكبر هو ذو الرتبة الأعلى

ورغم كونه لا يستحق ذلك

إلا أنه يطالب دوما

أن يخدم دون تذمّرٍ

من يريد أن يكون كبيرنا

يجب أن يستحق ذلك.

* * *

طبيبتي

يا طبيبتي الشابة، عندما كنت مريضاً

لم تتركيني لحظةً

ولكن حين غادرت المشفى

رميتني جانباً كيتيم

*   *   *

كم أحلم أن أمرض ثانيةً

وأعود إليك إلى المشفى وأبلع الدواء

ليس لي طريق آخر لأراك

لنتابع قراءة مزاحنا هذا

*   *   *

كنت أخذت بيدي معصمك

أعد نبضك وأعاين رقص قلبك

لست عالماً بالطب

لكنني متبحرٌ بالعيون الزرقاء

* * *

لا تحدثيني عن الأمراض يا عزيزتي

إن مثلي يعالجهم الجمال

ولا منقذ لي غيره قط

يا طبيبتي الشابة زرقاء العينين

* * *

إلى أغنيتي

عندما يزورني المرض.
كوني الطبيب الماهر
عندما تقترب شيخوختي بهدوء.
اقطعي الطريق أمامها.

حدثيني من جديدٍ عن الحب.
عندما أصاب بالعمى والطرش
انطقي باسم حبيبتي
فيعود لي سمعي ثانيةً.

عندما تحين ساعتي الأخيرة.
كوني شاهدةً لقبري
ليس عندي أيةُ أمنيةٍ أخرى.
غير ذلك.

* * *

إن كنت صديقي

إن كنت صديقي، فها هو مدخل بيتي

ينتظرك مبعداً كل الضباب عن طريقك

إن كنت مريضاً من شدة العطش

فها هو نهري – أصبح لك

* * *

حتى إن غطت الظلمة ساحة منزلي

سأستقبلك ما إن تعطني إشارةً

ها هو ذا خبزي وورودي ونبيذي

كل ممتلكاتي - لك يا صديقي

* * *

إن كنت تشعر بالبرد – اقترب من الموقد

سأزيد النار حطباً

إن كنت جائعاً – لا تتذمر، سأساعدك

سأقسم كسرة الخبز بيني وبينك يا صديقي

* * *

إن بدأت تذوب كشمعةٍ

لاعناً الجراح والمرض

سآتيك بالطبيب حالاً

وسأقدم لك دمي يا صديقي

* * *

إن كنت خائفاً، خذ خنجري

احمله على خصرك

إن كنت ضجراً

سنطرد الضجر وإياك معاً

* * *

إن سقط حصانك، فها هو حصاني مسرجاً

اقفز إليه مسابقاً الريح وفي أحلك الأيام

إبق لي صديقاً وفياً مخلصاً

إن كنتُ ممتطياً حصاني أو كنتُ تحته.

* * *

إلى أين يا شبابي؟

- يا شبابي أين تمضي؟

- أنا أتعقب آثار آمالي.

- ومن يمضي في طريقٍ آخر.؟

- كلُّ البشر تقاد برسن آمالها.

- يا شبابي، خلف ماذا تركض.؟

- أتعقب آثار أحلامي.

- وهل لحق أحدٌ بأحلامه.؟

- ربما نعم وربما لا.

- يا شبابي، من إلهك،؟ قل لي.

- عندي إلهٌ واحدٌ – إنه الحب.

- يا شبابي، لا يحالف الحظُ الجميعَ في الحب.

- أصلي للحظ وهو لا يعارضني.

- يا شبابي، لقد اخترت طريقاً طويلاً.

- علك أنت لا تؤمن أنك ستصل.؟

- أؤمن.

- وما كنه إيمانك هذا.؟

- أُنظر إلى الخلف، وعندها ستفهم.

* * *

حتى أولئكَ الذين لم يبق لهمْ

حتى أولئكَ الذين لم يبق لهمْ

سوى خمس دقائق، يرون بها النورْ

تراهم يتململون يريدون الخروج من جلودهمْ

كأنهمْ سيعيشون مئاتٍ أخرى من السنينْ.

* * *

وهناك في الأفقْ، بصمتٍ، ومنذ مئاتِ السنينْ

جبالٌ تنظر إلى البشر الصاخبين

جبالٌ جمدت بحزنٍ وصرامة

كأنها ستعيش خمس دقائق فقط

* * *

لست أعجب، ولمَ العجب؟

فمن المعلوم منذ القرون

أنّ السمّ والنميمة والكذب

تصيب الإنسان فتقتله

* * *

أما ما لا أستطيع فهمه هو:

لماذا يحصل أحياناً؟

أن الحُبّ والحقيقة والخمر

تقتل الإنسان أيضاً

* * *

لو لم تغنِّ لي أمي أغانيها

لما كان عندي لغةٌ عزيزة

واسمٌ خاصٌ بي وصوتٌ، ووجه

لكنتُ في رحلاتي البعيدة

أضعتُ طريقي كقطيعِ غنمٍ في الفضاء...

وأنتَ أيها الحب العظيم، لما اشتعلت داخلي _

بهذه القوة وهذا الشغف بهذه النعومة وهذه الجرأة.

لو لم تغنِّ لي أمي أغانيها

وهي تهزّ سريري كقاربٍ على الأمواج.

أغاني العصافير هذه في محيطات السماء

فوق شعاب أوتار قيثارات المطر

رائحة أوراق الشجر الطرية، والخبز الحبيب

المرفوع مباشرةً عن الزوايا الحية المشتعلة –

من أين كانت لي القوة الكافية

لأملأ قلبي من كل هذا _

لو لم تغنِّ لي أمي أغانيها

وهي تهزّ سريري كقاربٍ على الأمواج.

هل كان لهذا العالم أن يكون عزيزاً

ولهذه الحياة أن تكون غاليةً، لنتعلق بها مرتجفين

هل كان للإنسان أن يكون محبوباً

لدرجةٍ تجعلك تشده إلى قلبك

هل كان للزمن، الخالد والآني

أن يتدفق ويمتزج ويغلي هكذا داخلي –

لو لم تغنّ ِلي أمي أغانيها

وهي تهز سريري كقاربٍ على الأمواج.

* * *

كنت قد أصبحت يافعاً

كنت قد أصبحت يافعاً

حين ولِدتِ

كنت حينذاك أعرف كلّ حدائق الحي

وكنت أذهب إلى الصف الأول

وعندما كانت أمكِ

تنشغل لسببٍ ما

كانت تدعوني كي أهتم بكِ

ومع أنها لقاء هذا

كانت تقدم لي الهدايا

أذكر جيداً أنني

كنت أموت ضجراً أمام سريركِ

ركضت السنون

ومرةً أخرى عدت إلى قريتي الحبيبة

ما أجمل جدائلكِ

كم كبرنا سريعاً

وها آنذا كما في الطفولة أنتظر

أن تدخل والدتكِ

وتدعوني كما في السابق

للاهتمام بكِ

لكنت أنا الآن

سأحمل لها الهدايا

أنا أنتظر.. فلتفتح الباب فقط

يا لروعة اهتمامي بكِ الآن

* * *

غالباً ما أفكر

غالباً ما أفكر

أن الأرض كلها وطني. . بيتي

أينما وجدت المعارك والنار ورعد المدافع

يحترق بيتي يحترق بيتي

أيها القرن العشرين

لقد أصبحت مصيراً لجسدي

تتحارب السنون فيما بينها

وأينما وجدت رعود المدافع والنار والمعارك

نحترق وإياك يا قلبي

* * *

كي نعبر ما يعترضنا

كي نعبر ما يعترضنا

من عقباتٍ بسلامٍ.

في طريقنا نحو الهدف السامي.

نحتاج صديقا.

وضعاً نفسيّاً مرتاحاً

في جسمٍ يتمتع بالصحة.

وأغنيةً تصحبنا كنجمةٍ

* * *

من لم تلقه

فرسه الرشيقة عن كتفيها مراراً

لن يصبح فارساً

* * *

من لم يتلف بعضاً من أشعاره

من يخرس أمام السطور ولا يقوى على شطبها

لن يصبح شاعراً

* * *

من يسقطْ أمام مآسيه

لن يعرف يوم سعادة.

من لم يعرف خوفاً في الدرب الصعب

سيظل جباناً

* * *

وداع

وقفت على درج القطار

ومددت بمرحٍ يدي مودّعاً صديقي

مع الفرح والضحك ودّع أحدنا الآخر

وها أنا أرى من نافذتي أعمدة الهاتف تتسابق

* * *

غنيت وغنيت وفجأةً صمت

هاجمني الحزن متأخراً

ولفني حنين إلى ذلك الصديق

أصبحت لا أرى دخاناً ولا أسمع صفيراً

لا جبال ولا شواطئ حولي

بل وجه صديقي خلف زجاج النافذة

* * *

اللقالـق

يبدو لي أحياناً أن الجنود

الذين لم يعودوا من الحقول المغطاة بالدم

لم يدفنوا في أرضنا حينذاك

بل تحوّلوا إلى لقالق بيضاء

وحتى هذه اللحظات، ومنذ ذلك الزمن البعيد

يطيرون ويرسلون لنا الأصوات

أليس لهذا غالباً وبحزن

ننظر صامتين إلى السماء

واليوم وقبل الغروب

أرى هذه اللقالق في الضباب

تطير بتشكيلتها المعهودة

كما كانت تسير على الأرض حين كانت بشراً

تطير لتقطع طريقها الطويل

وتصرخ بأصواتٍ ما

أليس من أصوات اللقالق

وخلال القرون تجمّعت اللغة الآفارية[١]

يطير ويطير عابراً السماء

هذا السهم التعب

يا أصدقاء الماضي ويا أحبائي

إن في تشكيلتكم هذه فراغاً ضيقاً

لعله مكانٌ مخصصٌ لي

سيأتي يومٌ ومع سرب اللقالق

سأطير في لحظاتٍ كهذه

ومن السماء العالية سأناديكم كالطيور

يا من تركتكم على الأرض.

* * *

---

(١) لغة الشاعر.

لو أعدَّ ألف رجلٍ في هذا العالم

لو أعدَّ ألف رجلٍ في هذا العالم

ليرسلوا إليكِ طالبين يدك

اعلمي أن من بين أولئك الرجال

سأكون أنا.. رسول حمزاتوف

لو أسر حبكِ منذ زمن

مئة رجلٍ جاعلاً دماءهم تغلي

ليس من الصعب ولا يحتاج عبقريةً

العثور بينهم على جبليٍّ يدعى رسول

لو عشقكِ عشرةٌ من الرجال

الحقيقيين الذين لا يخافون نار قلوبهم

بينهم متلوياً متحسراً

سأكون أنا رسول حمزاتوف

لو وجد شخصٌ واحد

فاقدُ عقله بسببكِ

اعلمي أنه هناك في القمم الملتفة بالغيوم

الجبليّ المدعو رسول

لو لم يكن أحدٌ يعشقكِ

وتعانين من الوحدة

سيعني هذا أنه تحت ألواح الصخور الباردة

مقبورٌ في الجبال.. رسول حمزاتوف.

* * *

أريد إعلان حبي

أريد إعلان حبي
لتلك البلاد
التي يعيش أهلها بسلامٍ ودفء
والتي يبدأ نشيدها الوطني بجملة
«الحب أعلى القيم على الأرض»
وليغنِّ هذا النشيدَ الرائع جميع الناس وقوفاً
ولتطر هذه الأغنية لتملأ السماء
وليصكَّ شعار هذه الدولة
أيادٍ متماسكة الواحدة بالأخرى
وفي علم هذه الدولة
لتدخل جميع ألوان الأرض
وليدخل بين هذه الألوان
اللقاء والفراق، القوة والضعف
أريد من جميع قبائل الأرض
أن تطلب اللجوء إلى بلاد الحب هذه.

* * *

كلنا سنموت

وليس بيننا خالدون

هذا أمرٌ مسلمٌ به وليس جديداً

ولكننا نعيش لنترك أثراً

بيتاً، درباً، شجرةً، كلمةْ

لن تجف جميعُ السواقي

ولن يلغي الزمنُ جميعَ الألحانْ

فالسواقي تزيد قوة النهرْ

والأغنية تزيد عظمةَ مجدنا.

*   *   *

قرب الموقد

أبواب الموقد مفتوحةٌ والفحم يتوهج

آجر الموقد ساخنٌ والنار تستعر بهدوء

أنظر إلى اللهب ويخيّل لي

ليس هذا فحمٌ يشتعل بل نجومٌ تتلألأ

* * *

نجوم الطفولة تشتعل نجوم سمائنا العزيزة

أجلس قرب النار ويبدو لي

كأن حكايا والدي عادت لتسمع ثانيةً

وأغاني والدتي ترنّ في الهدوء

* * *

انتصف الليل خمدت النار وأغلقت أبواب الموقد

لا نار لا دخان ولا أحد قربي

ما الذي بقي؟ الدفء الداخل إلى القلب

أغاني الوالدة وحكايا الوالد

* * *

في قريتي يسكنُ

في قريتي يسكنُ

إلى جوارنا شيخٌ

جلستُ معه مرة قرب ضفةِ النهر

سألتهُ: قل لي كم من السنين

سيستمرُّ الحبُّ مجتاحاً قلوبنا

أجاب الشيخُ إنه لا يعلم

رغم أن الشيبَ غطاهُ بالبياض

وقال لي أن أسأل من يفوقُه سنا

وحتى الآن لم أجد جوابا

* * *

أما أنا وإن شخت

وغطاني الشيب

لن يهرمَ حبي أبدا

وسيبقى حبي يدفئكِ

بنفَسه دائم الشباب

وإن سألني أحدٌ إلى متى سيبقى

هذا الشعاعُ المنعشُ يشتعلُ حب ؟

فإني مثل جاري الشيخ

سأجيب الجميع: اعذروني لا أدري

اسألوا من يفوقُني سنا

* * *

ها أنا ثانيةً أرى ذلك الجندي

ها هو ثانيةً يدخل المعركة بوجهه الملفوح

أراه حقيقةً، وأنا كامل الصحو.. لست نائما

إنه هو – أحد الملايين العشرين من الجنود

الذين لم يعودوا من الحرب

صديق مدرستي الذي لم يفارقه الحلم يوماً

في أن يدخل الجامعة ويصبح طالباً

ذلك الذي استشهد على ضفاف الدنيبر أو الألب

ها هو ثانيةً أمامي

تتابعت الأعوام وتعاقبت دون كلل

عشرةٌ، عشرون، ثلاثون، أربعون عام.

خرج من قبره، من مقبرة الجندي المجهول.

ألقى نظرةً على هذا العالم.

وتوجه نحو منطقته العزيزة

ذلك الشاب الدائم الشباب

الذي لم يبق له أبٌ أو أم

والشيب غطى رأس خطيبته منذ زمن

لم يتذكره بعض الناس

كما لم يستطع بعضهم إخفاء دموعه

إذ رأوا فيه ولدهم أو زوجهم أو أخاهم

رأوا فيه كل من لم يروهم منذ الزمن البعيد...

تسكع في الوديان وعلى ضفاف الأنهار

يسمع الأغاني والحكايات

يدخن بصمتٍ ويتكلم بروية:

«لقد تغير العالم والزمن كثيراً»

وقفت أمام الجندي الجبال متعددة الرؤوس

وقف الناس مختلفي الوجوه، وقفت المدن..

«كلاّ لم يتغير الناس، ولم تتغير الأخلاق

والجبال على ما كانت، والسعادة والشقاء أيضاً..»

وها هو ينحني فوق سرير طفلٍ -

لن يصبح أباً يوماً..

تنزل الصبايا نحو الوادي –

لن يحبهنّ يوماً..

وعلى تجاعيد وجوه الشيوخ

ينظر المقاتل الذي سقط في أرضٍ غريبة

بعيداً عن قمم أجداده

المقاتل الذي لن يعرف وجهه التجعد

فيرى أمام عينيه

داغستان، روسيا، يرى العالم كله.

«هل تغير كل هذا العالم الذي

تفتح وأزهر، عمّه الضجيج والضباب أمام ناظريّ

ساده الأمل والقلق

وخليط الضباب والمطر والضوء».

يشرب الجندي من الينبوع كما في السابق

كما كان منذ عشرات السنين

ويشكرني ويشكر العالم كله، يشكر منطقته الجبلية

لأن الجميع يحفظون ذكراه...

...إلاّ أنه فجأةً: يرى أمامه قلقاً أسود

يرى نظرات الأمهات التي مازالت تشتعل قلقاً

نظر حوله، رأى الشر يعم العالم

تقابل مع الأطفال اليتامى

بارتباكٍ وانزعاجٍ

وبحزنٍ شديدٍ صمت طويلاً

وانغمس ألمٌ في عمق قلبه

كضبابٍ في الوادي. وأنّ هدوءٌ عميق

دُهش المحارب» هل يعقل

ألم تنتهِ الحرب بعد؟

بعد كلّ هذه الآلام التي لا تطاق

بعد (بوخينفالد وهيروشيما) -

أيعقل حتى الآن

وجود مكانٍ للشر والعنف

في قلبٍ ما على هذه الأرض.؟

وهل هنالك أقدس من صداقة الدم

والتي عمّدت بالدم

وهل نسي العالم نار الأخوة

التي اشتعلت على قمة (الألب) ؟

آهٍ لن يسمح واجبي العسكري -

أن تأكل النيران كل شيء

فأنا لم أدافع عن الأرض فحسب –

بل عن الحقيقة، والجرأة، عن الحكمة، والطيبة.

عن العالم الذي أقبله إن عمه السلام

وسأبقى على موقفي

وباسم جميع من سقط في الحرب

دفاعاً عن الشرف والأخلاق والحب

أوصيكم أن تحافظوا على ما سقطنا من أجله

وهل ممكنٌ إحصاء حجم تلك الخسارة؟

لن يعوضها لنا شيءٌ للأبد...

وهل قليلٌ عدد من قتل على هذه الأرض؟

وعدد من تشوه؟

لكن الدماء ما زالت تسيل والقتلة ما زالوا أحياءً

وهل لهذا نهايةٌ يوماً؟

وها هي الانفجارات تعود لتسمع من جديد»

مشى الجندي في طريق العودة

وبهدوءٍ تعاقب الشروق والغروب

يسبحان فوق رأسي

وفي الليالي أرى ذلك الجندي:

يندفع ثانيةً إلى المعركة..

تفوح منه رائحة البارود

وهو يدافع عن السلم والطيبة

الجندي الذي استشهد على قمة الألب البعيد

أو على شاطئ الدانوب أو الدنيبر.

* * *

N

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة





www.syrbook.gov.sy

مطابع الهيئة العامة السـورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ٩٠ ل.س أو ما يعادلها